١٩٧٢

مكتبة نوبل

هاينرش بُل

وكان مساء...

مختارات قصصية



ترجمة: سمير جريس

وكان مساء ...

قصص مختارة

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : هاينريش بُل
عنوان الكتاب : وكان مساء . .
قصص مختارة
المترجم : سمير جريس
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٤

Author:Heinrich Böll
Title :So Ward Abend...
"Selection of stories"
Translator:Samir Grees
Al- Mada P.C.
First Edition : 2004

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٢-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
E-mail:almada112@yahoo.com

١٩٧٢
مكتبة نوبل

هاينريش بُل

وكان مساء...

قصص مختارة

ترجمها عن الألمانية:
سمير جريس

تعتمد هذه الترجمة لبعض القصص المختارة للأديب الألماني هاينريش بُل على طبعة الأعمال الكاملة للكاتب *Heinrich Boell Werke*، التي صدرت عام ١٩٨٧ عن داري نشر:

(Lamuv Verlag, Bornheim-Merten, und Kiepenheuer & Witsch, Koeln ergaenzte Nueauflage) ١٩٨٧ ١٩٧٧

الفهرس

مقدمة

"الإنسان الطيب من كولونيا"

هكذا كانوا يطلقون على هاينريش بُل لدماثة أخلاقه وتمسكه بالمبادئ الدينية التي نشأ عليها، وأيضا لمواقفه السياسية العديدة التي كان يعبر خلالها عن موقف اجتماعي مناصر للمظلوم والضعيف. قالوا عنه إنه الأديب الألماني الأكثر معايشةً وتعبيراً عن مشاكل مجتمعه بعد الحرب العالمية الثانية. لم يكن هو بالأديب الذي يكتب من برج عاجي، وإنما كان من رجال الفكر الذين يسيرون في الشوارع مع المتظاهرين، وكما فعل في الخمسينات والستينات عندما شارك في المظاهرات المناهضة لإعادة تسليح ألمانيا، أو انضمامها لحلف شمال الأطلسي، أو الصراع النووي مع أوربا الشرقية؛ كما خرج مع الطلبة في مظاهراتهم عام ١٩٦٨ لإحداث تغيير جذري في نظم المجتمع كافة. لهذا اعتبروا أدبه صورة حية للتطور السياسي والاجتماعي في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، ونظر إليه كثيرون - داخل ألمانيا وخارجها - على أنه "ضمير الأمة الألمانية الحي". ولهذا أيضا يفتقده عديدون، منهم الروائي غونتر غراس (نوبل ١٩٩٩) الذي أعرب مؤخرا في أحد أحاديثه (خريف ٢٠٠٢) عن شعوره بالفراغ الكبير الذي تركه رحيل زميله بُل عام

١٩٨٥ والمشاركة في الهم السياسي والقضايا التي تتعدى جماليات الأدب هي ما جمعت الأديبين، وأوجدت بينهما نوعا من "تقسيم العمل" في الشأن العام، على حد تعبير غراس.

ولد هاينريش بُل في الحادي والعشرين من شهر ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩١٧ في مدينة كولونيا بغرب ألمانيا. نشأ وسط عائلة متماسكة منحته الدفء والرعاية، حتى في أحلك فترات الأزمة الاقتصادية العالمية في عشرينات هذا القرن، والتي شهدت فيها ألمانيا تضخما رهيبا راح ضحيته عديد من أصحاب الأعمال والحرفيين، ومنهم أبوه الذي كان يعمل نجارا. تركت هذه الفترة أثرا كبيرا في نفس الصبي، وفتحت عينيه على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للبسطاء من الناس، ودفعته إلى قراءة أعمال كبار الكتاب الاجتماعيين مثل دستويفسكي وتشارلز ديكنز.

الخبرة الثانية التي حفرت عميقا في نفس الصبي تمثلت في تولي أدولف هتلر مقاليد الحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣ . عن هذه الفترة يقول بُل: "بعد الخبرة التي عايشتها في الأزمة الاقتصادية - خبرة العجز الاقتصادي - جاءت خبرة العجز السياسي، التي ربما كانت أسوأ؛ ففي الأولى كان باستطاعة الإنسان أن يرتب أموره وأن يساعد نفسه على نحو ما، أما في الثانية فلم يكن ثمة ما يمكن فعله".[١]

عرف هتلر كيف يستغل الوضع الاقتصادي المزري آنذاك وسخط الناس لاكتساب الناخبين إلى حزبه اليميني المتطرف، معتمدا على موهبته الفذة في الخطابة واستثارة مشاعر الجماهير؛ ففي أوقات الأزمات الاقتصادية والإحباط والتخبط السياسي يقع الناس فريسة

سهلة للأفكار المتطرفة والوعود الحالمة. نجح هتلر في مسعاه وفاز حزبه في الانتخابات (فوزا ديمقراطيا!)، وعين مستشارا لألمانيا. كانت آيديولوجية حزبه - الحزب القومي الاشتراكي، أو الحزب النازي - متطابقة مع أفكار هتلر التي دونها في كتابه الشهير: "كفاحي". اتسم برنامج النازية بالعنصرية، والقومية المتعصبة، والتوسع الاستعماري، والمعاداة للحريات ولسلطة البرلمان الرقابية، وكراهية اليهود. خلال مدة وجيزة لم تتجاوز الستة شهور قلب المستشار الجديد موازين القوى في البلاد لصالحه، واستطاع أن ينفرد بزمام السلطة بين يديه، محولاً الجمهورية الفتية - جمهورية فايمار- إلى دكتاتورية مطلقة. وصل هتلر إلى غايته بإصدار القوانين الاستثنائية، وإلغاء الأحزاب، وإغلاق الصحف التي تجرؤ على معارضة سياسته؛ وبذلك أخرس كل معارضيه الذين إما هاجروا خارج ألمانيا وعاشوا في المنفى - كالأدباء توماس مان، وبرتولت برشت، وشتيفان تسفايغ على سبيل المثال - أو تقوقعوا فيما سُمي بالمهجر الداخلي - مثل إيرش كستنر - أو امتلأت بهم السجون والمعتقلات. وتمكن هتلر بعد ذلك من إجراء بعض الإصلاحات لإنعاش الاقتصاد الألماني المتدهور، فنظرت إليه الملايين باعتباره منقذ البلاد من الفوضى والبطالة. كتاب هتلر "كفاحي" تحول إلى كتاب مقدس للألمان، حتى وصلت أرقام توزيعه بعد عام ١٩٣٣ إلى حوالي ١٠ ملايين نسخة، إذ أن توزيعه كان يتم بالمجان عند إتمام الزيجات مثلا! لذلك من الصعب تحديد عدد الألمان الذين قرأوا "كفاحي" بالفعل. وقد ترجم الكتاب آنذاك إلى ١٦ لغة، من بينها العربية، حيث صدر حتى عام ١٩٧٥ ثلاث طبعات مختلفة في بيروت. [٢] ومن المخزي أن

هتلر كان (هل أقول لم يزل؟) له معجبون كثيرون في العالم العربي أثناء الحرب العالمية الثانية - لمجرد أنه كان يحارب الإنجليز والفرنسيين. كثيرون كانوا يأملون أن ينتصر هتلر ليحرر البلاد من ظلم المستعمرين. هذه النظرة القاصرة والجاهلة والعاجزة عن فهم الحقائق التاريخية دفعت - على سبيل المثال - بأنور السادات، الذي كان آنذاك ملازما في الجيش المصري، إلى التعاون مع جاسوسين ألمانيين، توهما أن الخلاص من الإنجليز في يد الألمان. [٣]

بعد أن أتم بُل دراسته الثانوية عمل نجارا في ورشة أبيه، وبدأ العمل في مكتبة، إلى أن انتزعه أمر التجنيد من دفء الأسرة ليلقي به إلى آتون الجبهة في حرب مجنونة توسعية جرت الخراب على ألمانيا وعلى أوربا كلها، وراح ضحيتها ٣٠ مليون إنسان. حرب طويلة استمرت ست سنوات قضاها بُل كلها مرتديا الزي العسكري.

بعد نهاية الحرب شهدت الساحة الثقافية الألمانية نقاشا حاميا وجدلا استمر عدة سنوات حول المسؤولية التي يتحملها الألمان - أفرادا وشعبا - تجاه جرائم النازية. (لاتبدو مثل هذه الأسئلة عن مسؤولية العراقيين والعرب مطروحة على الساحة الثقافية، ومازال يحلو لكثيرين أن ينسبوا كل ما حدث ويحدث لشخص بعينه، ابن لادن أو صدام حسين أو .. أو ..) أيضا كان السؤال المطروح: ما فرصة نشوء أدب جديد وسط الأنقاض؟ أدب يستخدم لغة أخرى بسيطة وصادقة، بعيدا من عنتريات خطاب هتلر، ووزير دعايته (صحّاف عصره) يوزف غوبلز الحائز على درجة الدكتوراه في الأدب الألماني، والذي - كما هو مشهور عنه - كان يتحسس مسدسه عندما يسمع كلمة ثقافة. في هذه الأجواء

تأسست "جماعة ٤٧" الأدبية التي استمدت اسمها من العام الذي التقت فيه لأول مرة. سريعا غدت هذه الجماعة أهم ملتقى للأصوات الشابة التي تبحث عن بداية جديدة للأدب الألماني، مثل إنغبورغ باخمان وأوفه يونسون وغونتر غراس. وفي رحاب هذه الجماعة تفتحت موهبة هاينريش بُل أيضا، الذي حاز عام ١٩٥١ على جائزتها السنوية.

"كنت أريد دوما أن أصبح كاتبا، بل وحاولت مبكرا، غير أنني لم أجد الكلمات إلا أخيرا." هكذا كتب بُل عام ١٩٥٩ متذكرا بداياته مع الكلمة. ويبدو أن تجربة الحرب هي التي وضعت الكلمات على فمه، إذ شرع بعدها مباشرة في نشر قصصه القصيرة الأولي في مجلات أدبية، متأثرا شكلا وأسلوبا بالقصة الأمريكية القصيرة وبخاصة عند هيمنغواي. وتركزت أعماله في تلك الفترة علي تصوير عبثية الحرب، وقلة حيلة الجنود في الميدان، وعجز الإنسان البسيط أن يفعل شيئا، ثم الأنقاض التي خلفتها في النفوس. يتجلى ذلك بأوضح صورة في قصصه القصيرة التي نشرها أوائل الخمسينات، مثل "أيها الجوّال، إذا وصلت أسبـ ..." و"موت إلزه باسكولايت" و"عند الجسر" ...

انتقل بُل في سنوات الخمسينات والستينات إلى تصوير ونقد المجتمع الألماني في ظلال ما سُمي بـ "المعجزة الاقتصادية". في غضون عشر سنوات ـ وبمساعدة مشروع مارشال الأمريكي لإعادة إعمار دول أوربا الغربية ـ تحولت ألمانيا من دولة متسولة إلى واحدة من أقوي الأمم الصناعية في العالم الغربي. انتشر الرخاء المادي والرفاهية في البلد الذي عاني طويلا الجوع والعوز والفاقة. لكن بُل رأى خلف هذه الواجهة البراقة أمراض المجتمع الجديد الذي اتخذ من المال قيمة تعلو فوق كل

قيمة؛ مجتمع قام بعملية إزاحة وكبت جماعي لخبرة الحرب متناسيا مسئوليته في نشوب تلك الحرب. هذه الموضوعات، بالإضافة إلى توجيهه النقد اللاذع للكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا كمؤسسة وسلطة تماشي النظام السياسي، هي التي تناولها بُل في قصصه القصيرة، مثل: "الشغل شغل" و "كما يحدث في الروايات السيئة" و "من نوادر هبوط أخلاقيات العمل"؛ ورواياته: "ولم ينطق بكلمة واحدة" (١٩٥٣)، "بيت بلا راع" (١٩٥٤)، "البلياردو في التاسعة والنصف" (١٩٥٩)، "آراء مهرج" (١٩٦٣)، و "صورة جماعية مع سيدة" (١٩٧١). في سنوات الخمسينات كتب بُل عددا من القصص التي أسست شهرته ككاتب ساخر، منها في هذه المجموعة: "الضاحك"، و "هنا تيبتن"، و "سيحدث شيء". ومن الموضوعات الملحاحة في قصص وروايات تلك المرحلة موضوع رفض الاندماج في المجتمع، واختيار الحياة على الهامش بكامل الوعي، أي رفض أن يصبح الفرد ترسا في آلة المجتمع الصناعي المنتج. وبالرغم من تحول بُل شبه الكامل إلى الرواية منذ أواخر الخمسينات، إلا أن القصة القصيرة ظلت هي أحب الأشكال الأدبية إلى نفسه، بل إن عديدا من النقاد يرون أن موهبته وقدرته الأدبية إنما تتجلى في قصصه القصيرة.[٤]

خلال سنوات السبعينات انصرف بُل إلى نقد ممارسات صحافة الإثارة، وكذلك تزايد سلطة الدولة الرقابية وممارساتها البوليسية، فأصدر عام ١٩٧٤ رواية شهيرة، هي من أكثر أعماله رواجا: "شرف كاتارينا بلوم الضائع – أو: كيف ينشأ العنف وإلى أين يؤدي". وفي عام ١٩٧٩ صدرت روايته: "الحصار من أجل الرعاية". أما آخر رواياته: "نساء أمام منظر طبيعي لنهر" فقد نشرت قبيل وفاته بقليل عام ١٩٨٥.

في سنواته الأخيرة هجر بُل الكتابة الإبداعية، واقتصر على كتابة المقالة التي تتناول فيها بالنقد الأحداث السياسية والأدبية المعاصرة[5] . وقد جُمع عدد كبير من مقالاته القيمة لاحقا وصدر تحت عنوان: "أرض ملغومة" (١٩٨٢)، "احتجاج وتأييد" (١٩٨٤) و "القدرة على الحزن" (١٩٨٦).

وقد لقي أدب بُل صدى واسعا في ألمانيا فور صدوره، وسرعان ما لقي اهتماما في الخارج أيضا؛ ليس فقط في أوربا الشرقية والغربية وأمريكا، وإنما أيضا في الصين وكوريا والهند واليابان وإيران. وفي عام ١٩٧٢ تم منح هاينريش بُل جائزة نوبل في الآداب، ليكون بذلك هو أول أديب ألماني يلقى هذا التكريم بعد حقبة النازية، إلى أن لحق به عام ١٩٩٩ زميله غونتر غراس . [6]وذكرت الأكاديمية السويدية في حيثيات منح الجائزة لبُل أنها تقديرا "لإبداعاته التي جددت الأدب الألماني وأثرته، وذلك من خلال رؤيته الشاملة للتاريخ المعاصر واتصالها الوثيق بفنه الروائي المطبوع بقدراته الشعورية مُرهفة الحس."

هل تخاطب أعمال بُل القارئ العربي؟ لاشك. بُل يعالج - خاصة في قصصه القصيرة - قيما إنسانية تتجاوز النطاق المحلي الضيق؛ كما أن أعماله مرآة صادقة تعكس التطور الاجتماعي والسياسي في ألمانيا ما بعد الحرب. معظم العرب ينظرون مبهورين إلى ألمانيا الغنية، ولا يرون إلا جانب المعجزة الاقتصادية فحسب؛ ويتجاهل الناس تماما - في غمرة تمجيد "العبقرية الألمانية" - تاريخ ألمانيا النازية الأسود، وأيضا الثمن الفادح الذي دفعه الألمان - ماديا وروحيا - مقابل إعادة البناء وتحقيق الرخاء الاقتصادي.

هذه المجموعة تضم قصصا لم تسبق ترجمة أغلبها إلى العربية، وهي تبين التطور الذي شهدته قصص بُل مضمونا وأسلوبا. وتطمح المجموعة إلى تقديم بعض الأعمال المختارة لأديب ناقد لا يقدم في أعماله تبريرا للكارثة النازية، أو وصفا لأعمال بطولية خارقة في مقاومة النظام، أو تمجيدا لعظمة شعبه - وإنما يحكي ببساطه ما عايشه، محاولا إيجاد رد على السؤال: لماذا حدث ما حدث؟[٧]

سمير جريس

بوخوم - ربيع ٢٠٠٣

موت إلزه باسكولايت

كان قبو البيت الذي سكنا فيه قبل سنوات بعيدة مؤجرا إلى تاجر يُدعى باسكولايت: في ممرات القبو كانت تتناثر أقفاص البرتقال، ومن جنباته تفوح رائحة الفاكهة المتعفنة التي يضعها باسكولايت جانبا ليحملها جامعو القمامة. من خلف عتمة اللوح الزجاجي المُصَنْفَر كنا نسمع في الغالب صوته العريض ذا اللكنة الألمانية الشرقية لاعناً الزمان الرديء. ولكن في أعماق قلبه كان باسكولايت إنسانا بشوشا؛ كنا نعرف تماما - وهو ما لا يستطيع معرفته إلا الأطفال - أن سبابه مجرد تمثيلية، تماما كمشاجراته الكلامية معنا. كان كثيرا ما يصعد الدرجات القليلة التي تصل القبو بالشارع وقد امتلأ جيبه بالتفاح أو البرتقال، ثم يأخذ في قذفها إلينا كأنها كُرات صغيرة.

ولكن ما جعلنا نهتم حقاً بأمر باسكولايت هي ابنته إلزه. كنا نعرف أنها تريد أن تصبح راقصة، بل لعلها كانت بالفعل كذلك. كانت تُكثر على أي حال من التدريب تحتنا في القبو المطلي باللون الأصفر إلى جوار مطبخ باسكولايت: فتاة شقراء رشيقة، تقف على أطراف أصابع قدميها، مرتدية بلوزة من التريكو الأخضر، ولعدة دقائق تطير في الهواء كأنها بجعة، شاحبة الوجه تدور حول نفسها وتقفز، وتقع. من نافذة

حجرة نومي كنت أستطيع التفرج عليها عندما يأتي المساء: خلال فتحة الشباك المربعة الصفراء أرى جسدها النحيف في البلوزة الخضراء الفاقعة، ووجهها الشاحب المجهد، ورأسها الأشقر الذي كان يلامس أحيانا اللمبة العارية عندما تقفز، فتتأرجح اللمبة، وترسل لبضع لحظات دوائر من الضوء الأصفر إلى الحوش الرمادي. بعض الناس كانوا يطلقون صيحاتهم عبر الحوش "عاهرة!"، ولم أكن أعرف ما هي العاهرة، بينما يصيح آخرون "قلة حياء!"، وبالرغم أنني كنت أعتقد أنني أعرف معنى كلمة "قلة حياء"، إلا أنني لم أستطع التصديق أن يكون لإلزه أي علاقة بذلك. عندئذ كان شباك باسكولايت ينفتح عن آخره، وفي وسط أبخرة تحمير اللحم يظهر رأسه الأصلع الثقيل، ومع النور الذي ينساب من شباك المطبخ المفتوح إلى الفناء كانت خراطيم شتائمه تسيل عبر الفناء المظلم، والتي لم أكن أفهم منها كلمة واحدة. إلا أنه سرعان ما زودت حجرة إلزه بستارة سميكة خضراء اللون، لم تكن تسمح بتسلل أي شعاع من النور إلى الخارج. بالرغم من ذلك كنت كل مساء أنظر تجاه هذا المربع الذي تنبعث منه إضاءة مكتومة، وأراها، مع أنني لم أكن أستطيع رؤيتها: إلزه باسكولايت في بلوزتها الخضراء الفاقعة، نحيفة شقراء، ولبضع ثوان تطير تحت اللمبة العارية.

ولكننا انتقلنا بعد ذلك بقليل إلى منزل آخر، وكبرتُ، وعرفتُ ما هي العاهرة، وكنت أعتقد أنني أعرف ماذا تعني كلمة "قلة حياء"، وشاهدت راقصات عديدات، ولكن لم تعجبني أي واحدة منهن مثلما كانت تعجبني إلزه، التي لم أعد أعرف عنها أي شيء. وانتقلنا إلى مدينة أخرى، وجاءت الحرب، حرب طويلة، ولم أعد أفكر في إلزه

باسكولايت، ولم أفكر فيها أيضا عندما رجعنا إلى مدينتنا القديمة مرة أخرى. حاولت أن أكسب لقمة عيشي في مختلف المهن، حتى أصبحت في النهاية سائقا لدى تاجر فاكهة بالجملة. كنت أحصل في الصباح على قائمة التوزيع، وعلى أقفاص التفاح والبرتقال وسلال البرقوق لأنقلها بالسيارة إلى المدينة.

وفي يوم ما، كنت أقف بجانب المخزن وهم يُحَمِّلون سيارتي بالبضاعة، منهمكا في مقارنة العهدة التي يسلمها إلى أمين المخزن بقائمة في يدي. وفي تلك الأثناء أتى المحاسب من كشكه الذي غطته إعلانات الموز وسأل أمين المخزن: "هل باستطاعتنا التوريد لباسكولايت؟"

- "هل بعث بطلبية؟ عنب أزرق بالتأكيد؟"

- "نعم"، قالها المحاسب ساحبا قلم الرصاص من خلف إذنه وناظرا إلى أمين المخزن مندهشا.

فقال الأمين: "يرسل لنا طلبية بين الحين والآخر: عنب أزرق - لا أعرف لماذا، ولكننا لا نستطيع التوريد له." ثم صاح في الشيالين المرتدين معاطف رمادية: "هيا!" ورجع المحاسب إلى كشكه، ولم أعد أنتبه إذا ما كان الشيالون يقومون فعلا بتحميل ما هو مكتوب على قائمتي. رأيت أمامي ذلك المربع المضاء من شباك القبو، ورأيت إلزه باسكولايت ترقص، نحيفة، شاحبة، مرتدية بلوزة خضراء فاقعة. في ذلك الصباح سلكت طريقا مختلفا عما هو مرسوم لي. من أعمدة الإنارة - حيث كنا نلعب - لم يبق إلا عمود واحد، وحتى هذا كان بلا رأس. كانت سيارتي تتأرجح بفعل المطبات العميقة وهي تمر على بيوت

معظمها مدمر. وفي الشارع الذي كان يزدحم فيما مضى بالأطفال لم يكن هناك سوى طفل واحد: صبي أسمر شاحب يجلس متعبا فوق بقايا أحد الأسوار، منهمكا في رسم أشكال في التراب الذي يميل لونه للبياض. رفع نظره إلي عندما مررت بجانبه، ثم ترك رأسه تنخفض مرة أخرى. أمام منزل باسكولايت فرملت ونزلت. كانت الأتربة تغطي واجهات العرض الصغيرة في دكانه وقد اسود لونها الأخضر من القذارة. نظرت إلى أعلى تجاه جدار المنزل المُرمم، ثم فتحت الباب المؤدي إلى الدكان ونزلت ببطء. كانت رائحة الخُضار الرطب تفوح بقوة في المكان منبعثة من صندوق من الكرتون موضوع بجوار الباب وممتلئ عن آخره بها. عندئذ رأيت باسكولايت من ظهره، رأيت شعره الرمادي من تحت طاقيته، وشعرت بضيقه الشديد وهو يملأ زجاجة بالخل من برميل كبير. كان فيما يبدو يعجز عن التحكم في سدادة البرميل، فانساب السائل الحمضي فوق أصابعه في طريقه إلى الأرض حيث تكونت حفرة صغيرة متعفنة في الخشب فاحت منها رائحة حمضية، وكلما تحرك صدر عنها صرير. عند طاولة البيع وقفت سيدة نحيفة ترتدي معطفا يميل إلى الحمرة ناظرة إليه بلا مبالاة. وأخيرا بدا أنه تمكن من ملء الزجاجة، فأدخل السدادة فيها، وكررت أنا ما قلته عندما مررت بالباب، قلت بصوت خافت: "صباح الخير"، ولكن لم يجاوبني أحد. وضع باسكولايت الزجاجة فوق الطاولة، كان وجهه شاحبا وغير حليق، ثم نظر إلى السيدة وقال: "ابنتي ماتت - إلزه -" فقالت السيدة بصوت مبحوح: "أعرف. أعرف ذلك منذ خمس سنوات. وأحتاج أيضا إلى رمل لتنظيف المواعين." وردد باسكولايت: "ابنتي ماتت." وحملق في المرأة وكأن ذلك قد حدث

بالأمس، حملق فيها محتارا، ولكن المرأة قالت له: "من السائب - كيلو." وسحب باسكولايت برميلا اسودّ لونه من تحت الطاولة مخرجا إياه، ثم أخذ يقلب بجاروف من الصفيح داخل البرميل، وملأ بيده المرتعشة كيسا رماديا من الورق بكتل صفراء.

قال: "ابنتي ماتت." صمتت المرأة، ونظرت أنا فيما حولي، فلم أكتشف إلا أكياس مكرونة علاها التراب، وبرميل الخل الذي كان صنبوره ينقط ببطء، ورمل التنظيف، ولوحة معدنية صُقلت بالميناء عليها صورة صبي أشقر يبتسم وهو يأكل قطعة شيكولاته لم يعد لها وجود منذ سنوات. أدخلت المرأة الزجاجة في حقيبة التسوق الشبيهة بالشبكة، ثم وضعت الرمل بجانبها وألقت ببضع عملات معدنية فوق الطاولة، وعندما استدارت ومرت بجانبي أدارت يدها بالقرب من رأسها في حركة ذات معنى وابتسمت لي.

تذكرت أشياء عديدة، تذكرت تلك الأيام عندما كنت صغيرا حتى أن أنفي كانت تستقر تحت حافة الطاولة القذرة؛ أما الآن فبدون جهد كنت قد تخطيت ببصري البرطمان الزجاجي لشركة من شركات البسكويت، والذي امتلأ الآن بأكياس يعلوها الغبار عُبئت بدقيق السميذ - وكأنني أخذت في الانكماش لعدة لحظات، شعرت خلالها بأنفي تحت حافة الطاولة القذرة، أحسست بالقروش المعدنية التي كنت أشتري بها البونبون في يدي، ورأيت إلزه باسكولايت ترقص، وسمعت الناس يصيحون في الحوش: "عاهرة" و "قلة حياء"، إلى أن أيقظني صوت باسكولايت: "ابنتي ماتت." كان يردد الجملة بميكانيكية، بلا إحساس تقريبا، ثم وقف عند نافذة العرض ونظر تجاه الشارع.

"نعم." قلت له، فقال: "ماتت." قلت: "نعم." ثم استدار معطيا ظهره لي، مبقيا يده في جيب معطفه الرمادي المبقع. "كانت تحب العنب - الأزرق، ولكنها الآن ميتة." لم يسألني: "طلباتك؟" أو "أي خدمة؟"، كان يقف إلى جوار نافذة العرض، بقرب البرميل الذي تساقط من صنبوره قطرات الخل، مرددا: "ابنتي ماتت." أو "ماتت."، دون أن ينظر إلي.

وكأنني وقفت هناك عمرا بأكمله، ضائعا ومنسيا، في حين انساب الوقت من حولي. لم أستطع أن أنتزع نفسي من هناك إلا عندما دخلت امرأة أخرى الدكان. كانت قصيرة ممتلئة، تضع أمام بطنها حقيبة التسوق، والتفت باسكولايت ناحيتها قائلا: "ابنتي ماتت." فقالت المرأة: "نعم." وانخرطت في البكاء فجأة، ثم قالت: "من فضلك، رمل للتنظيف، كيلو من السائب." وجاء باسكولايت وراء الطاولة، وأخذ يقلب بالجاروف الصفيح داخل البرميل. كانت المرأة لا تزال تبكي عندما غادرتُ الدكان.

كان الصبي الشاحب الأسمر - الذي جلس عند مجيئي فوق بقايا السور - يقف الآن على سلم سيارتي ناظرا بانتباه تجاه عجلة القيادة، ثم أدخل يده عبر الشباك المفتوح وأدار مفتاح النور الجانبي، الأيسر ثم الأيمن. فزع الصبي عندما وقفت خلفه فجأة، ولكني أمسكت به ناظرا إلى وجهه الشاحب الخائف، ثم التقطت تفاحة من أحد الصناديق في عربتي وأعطيتها للصبي. نظر إلي مندهشا حتى أنني ارتعبت، وأخذت تفاحة ثانية، ثم ثالثة ودسستها في جيبه وتحت سترته .. تفاحا كثيرا .. قبل أن أركب السيارة وأبتعد عن المكان.

عند الجسر

رقعوا ساقي، ومنحوني وظيفة أستطيع ممارستها وأنا جالس: عليّ أن أحصي الذين يعبرون الجسر الجديد. يستمتعون عندما يبرهنون بالأرقام على مهارتهم، وينتشون من هذا اللغو السخيف المكون من بضعة أرقام. طوال النهار، طوال النهار يتحرك فمي الأخرس كتروس الساعة وأنا أكوم رقما إلى جانب رقم، لأهديهم في كل مساء انتصارا عدديا.

تشرق وجوههم عندما أخبرهم بنتيجة ورديتي، وكلما تضخم العدد ازدادوا إشراقا؛ فلديهم الآن سبب ليرقدوا على فراشهم راضيين عن أنفسهم: آلاف مؤلفة تعبر يوميا جسرهم الجديد ..

ولكن إحصاءهم لا يطابق الحقيقة. أنا آسف، لكنه لا يطابق الحقيقة. أنا إنسان غير جدير بالثقة، على الرغم من أنني أعرف كيف أترك انطباعا بالاستقامة.

يطيب لي سرا أن أغفل أحيانا عد شخص، ثم - عندما أشعر بالشفقة - أعود وأهديهم بضعة أرقام. سعادتهم في يدي. وعندما أكون غاضبا - إذا لم يكن لدي ما أدخنه - لا أكتب لهم إلا المتوسط وأحيانا دون المتوسط. وحينما يخفق قلبي - إذا كنت سعيدا - أترك كرمي يتدفق في عدد ذي خمسة أرقام. يا لسعادتهم عندئذ! بطريقة رسمية

ينتزعون النتيجة من يدي في كل مرة، ثم يربتون على كتفي. إنهم لا يدرون شيئا! ثم يبدءون في عمليات الضرب والقسمة واستخراج النسبة المئوية ..لأي شيء؟ لا أدري. يحسبون عدد الذين عبروا الجسر اليوم في كل دقيقة، وعدد الذين سيعبرونه في غضون عشر سنوات. يعشقون المستقبل البعيد .. المستقبل البعيد هو ما يفضلونه - ولكن، يؤسفني القول، كل ذلك ليس صحيحا.

فعندما تعبر حبيبتي القصيرة الجسر، وهي تعبره مرتين يوميا، يمتنع قلبي ببساطة عن الخفقان، ونبضات القلب، التي لا يدركها ملل أو كلل، تتوقف تماما حتى تميل حبيبتي في اتجاه الطريق الرئيسي وتغيب عن الأنظار. وكل من يمر في تلك الفترة لا أسجله وأخفيه عنهم. هاتان الدقيقتان هما ملكي، لي أنا وحدي، ولن أدعهم يأخذونهما مني. وعندما تعود كذلك في المساء من محل الجيلاتي، عندما تسير على الرصيف الآخر المواجه لفمي الأخرس الذي لابد أن يحصي ويحصي، فإن قلبي يتوقف من جديد، ولا أشرع ثانية في العد إلا عندما تختفي عن بصري. وجميع الذين يسعدهم الحظ بالمرور في تلك الدقيقتين أمام عيني العمياء لا يُخَلَدون في الإحصاء! رجال ونساء يبقون في الظل. كائنات عدمية لن تنضم إلى الإحصاء ومستقبله البعيد ..

من الواضح أنني أحبها. لكنها لا تدري عن ذلك شيئا، وأنا أريد أيضا أن تعرف شيئا. ليس لها أن تعرف كيف تقلب كل الحسابات رأسا على عقب. عليها بشعرها البني الطويل وقدميها الرقيقتين أن تمضي في سيرها إلى محل الجيلاتي بغير علم وبلا إحساس بالذنب، وتحصل على نقود وفيرة كبقشيش. أحبها. حبي لها واضح كالشمس.

منذ فترة وجيزة قاموا بالتفتيش علي. في الوقت المناسب نبهني زميلي الذي يجلس على الجانب الآخر ليحصى السيارات، فتيقظت حواسي كلها. كنت أحصى كالمجنون، عداد الكيلومترات لا يمكن أن يحصي أحسن منى. رئيس الإحصائيين وقف بنفسه أمامي ثم جاء وقارن نتيجة إحصاء ساعة بما كتبته في كشف الإحصاء. العدد الذي سجلته ينقص رقما واحدا عن عدده. حبيبتي القصيرة كانت قد عبرت، ولن أسمح في حياتي بنقل هذه الصغيرة الجميلة إلى المستقبل البعيد، حبيبتي القصيرة لن تجري عليها عمليات الضرب والقسمة، ولن تتحول إلى سخف ذي نسبة مئوية. انفطر قلبي عندما ظللت أحصي دون أن أتتبعها ببصري، ولكنني أدين بالشكر الجزيل إلى زميلي الذي يجلس أمامي ويحصي السيارات، فقد كان التفتيش مصيريا بالنسبة لي.

ربت رئيس الإحصائيين على كتفي وقال إنني إنسان كفء ومخلص ويعتمد عليه. وقال أيضا: "ليس شيئا أن تخطئ في عد شخص واحد خلال ساعة، فنحن نضيف على أية حال نسبة مئوية معينة لتعويض الفاقد. سوف أوصي بنقلك إلى العربات التي تجرها الخيل.

عربات الخيل هي بالطبع فرصتي الذهبية. عربات الخيل راحة ما بعدها راحة. عربات الخيل أقصى عدد تصل إليه في اليوم خمس وعشرون عربة. كل نصف ساعة تسقط في رأسك رقما .. هذه هي الراحة!

عربات الخيل ستكون فرصة رائعة. ما بين الساعة الرابعة والثامنة لا يسمح مطلقا بمرورها على الجسر. يمكنني عندئذ أن أذهب للتنزه، أو إلى محل الجيلاتي، يمكنني أن أراها مدة أطول، أو ربما أرافقها قليلا إلى المنزل ... حبيبتي القصيرة التي لم تُعد.

وداع

كنا في ذلك الجو النفسي البغيض عندما ينتهي اثنان من توديع بعضهما البعض، لكنهما لا يستطيعان الافتراق، لأن القطار لم يشرع في تحركه بعد. كانت ساحة المحطة - ككل ساحة محطة - قذرة، تعصف تيارات الهواء بجوانبها، مشبعة بالبخار المتصاعد من القاطرة، ومشبعة بالضجيج: ضجيج الأصوات والعربات.

كانت شارلوته تقف عند نافذة الممر الطويل في عربة القطار، تتوالى عليها من الخلف الخبطات، ومن الجانب اللكمات، ومن كل مكان تنهال عليها اللعنات. ولكن ما كان ممكنا في تلك العربة المكدسة أن نتفاهم بالإشارات أثناء تلك الدقائق الأخيرة، آخر وأثمن دقائق تجمعنا في الحياة ...

"فكرة طيبة"، كررَت هذه الجملة للمرة الثالثة، "كانت فكرة طيبة فعلاً أن مررتَ علي .."

- أرجوكِ .. لا تقولي هذا .. نحن نعرف بعضنا منذ مدة طويلة. خمسة عشر عاماً.

- نعم .. نعم. بلغنا الآن الثلاثين .. ولكن هذا ليس سببا .. على أية حال.

– لا تكملي، أرجوك. نعم .. لقد بلغنا الثلاثين. مثل عمر الثورة الروسية..

– مثل عمر القذارة والجوع ..

_أصغر قليلا ..

– أنت محقة .. مازلنا صغار السن جداً ..

وضحكت، ثم سألتني بعصبية، بعد أن خبطتها حقيبة ضخمة من الخلف.

– هل قلت شيئا ؟

– لا .. تلك كانت ساقي.

– لابد أن تفعل شيئا لساقك.

– نعم .. سأفعل .. فهي تُكثر التحدث ...

– هل مازال بإمكانك ـ أصلا ـ أن تقف؟

– نعم.

وكنت أريد أن أقول لها أنني أحببتها، ولكنني لم أستطع مصارحتها، منذ خمسة عشر عاما ..

– ماذا ؟

– لا شيء .. السويد، سترحلين إذن إلى السويد ..

– نعم، أخجل من نفسي قليلا .. فالقذارة والهلاهيل والأنقاض هي في الواقع حياتنا ... لذا أخجل من نفسي قليلاً. إنني أحتقر نفسي...

–كلام سخيف .. حياتك هناك. افرحي لسفرك إلى السويد ..

– أحيانا أفرح أيضا، أتعرف، الطعام، لابد أن يكون رائعا، ثم لاشيء .. لاشيء على الإطلاق مهدم. خطاباته كلها حماس.

دوى الصوت الذي يعلن قيام القطارات في الرصيف التالي لنا، فُزعت، لكنه لم يكن قطارنا بعد. أعلن الصوت قيام قطار دولي آتيا من روتردام ومتجها إلى بازل، وبينما كنت أرقب وجه شارلوته الرقيق الدقيق هبت علي رائحة صابون وقهوة، وأحسست ببؤس لا نظير له.

وللحظة اعترتني شجاعة يائسة، كنت أريد أن أنتزع هذه الفتاة صغيرة الجسم من الشباك انتزاعاً، وأبقيها هنا .. إنها لي، أنا الذي أحببتها ..

- ماذا بك؟

فأجبتها: لاشيء .. افرحي لسفرك إلى السويد ..

- نعم. لديه طاقة جبارة، ألا ترى ذلك أنت أيضا؟ كان أسيرا في روسيا لمدة ثلاثة أعوام، ثم هرب هروبا حفت به المخاطر، والآن يلقي محاضرات هناك عن الرسام روبنز.

- رائع .. فعلا رائع ..

- لابد أن تفعل شيئاً أنت أيضا، احصل على الدكتوراه على الأقل..

- اخرسي!

- ماذا؟

سألتني بفزع، وقد شحب لونها تماما.

- ماذا؟

فهمستُ: سامحيني. لا أعني إلا ساقي. فأنا أحيانا أتكلم معها ..

ما كانت تشبه أبداً روبنز. كانت بالأحرى شبيهة بيكاسو. لم انقطع يوما عن مساءلة نفسي، لماذا يريد أن يتزوجها، لماذا؟ لم تكن في يوم من الأيام جميلة، والذي كان يحبها هو أنا.

كـانت الحـركـة على الرصـيف قـد هدأت بـعـد أن أخـذ المسـافـرون أماكنهم، لم يقف حولي إلا بعض المودعين. في أي لحظة سيعلن الصوت قيام القطار. أي لحظة قد تكون هي الأخيرة ..

- لابد أن تفـعل شـيئـا، أي شيء، لا يمكن أن تـسـتـمـر على هذا الحال.

قلت لها: لا يمكن.

كانت على العكس تماما من رسوم روبنز: رشيقة، طويلة الساقين، عصبية، وكانت في عمر الثورة الروسية، وفي عمر الجوع والقذارة في أوربا، وفي عمر الحرب ...

- لا أستطيع أن أصدق .. السويد .. كأنه حلم ..

- حياتنا كلها .. حلم.

- هل ترى هذا؟

- بالتأكيد. خمسة عشر عاما. ثلاثون عاما .. ثم ثلاثون عاما. ولماذا الحصول على الدكتوراه؟ الأمر لا يستحق. اسكتي، عليك اللعنة!

- هل تتحدث مع الساق؟

- نعم

- وماذا تقول؟

- أنصتي.

صمتنا تماما، وتبادلنا النظر، وابتسمنا. بحنا ما في داخلنا، دون أن ننطق كلمة. ثم ابتسمت لي:

- هل فهمت الآن، هل الأمر على ما يرام؟

- نعم .. نعم.

- حقاً؟

- نعم .. نعم.

وأكملت كلامها بصوت خافت:

- ألا ترى أنه لم يكن مهما أن نكون معا و... و.. ليس هذا بالشيء المهم، ألا ترى ذلك؟

وانطلق الصوت الذي يعلن موعد قيام القطارات فوق رأسي بالضبط، ارتجفت، كأنما انهال على الساحة كرباج بوليسي هائل الحجم.

- إلى اللقاء.

-إلى اللقاء.

وببطء متناه بدأ القطار تحركه حتى ابتلعه ظلام الأفق.

أيها الجوّال، إذا وصلت أسبـ ...

عندما توقفت السيارة ظل المحرك يهدر لبرهة، وفي الخارج فُتحت بوابة كبيرة على مصراعيها. نفذ ضوء عبر النافذة المهشمة إلى داخل السيارة، الآن أرى أن المصباح الكهربائي المثبت في سقف السيارة تحطم؛ لم يبق منه سوى قاعدته المتعلقة برأس المسمار وبعض الأسلاك اللامعة وبقايا زجاج. كف المحرك عن الهدير، وفي الخارج صرخ صوت: "الموتى هنا - هل معكم موتى؟"

"اللعنة" أجابه السائق، "لم تعودوا تقومون بالتعتيم؟"

فأجابه الصوت الغريب: "لم يعد يجدي أي تعتيم، فالمدينة كلها تحترق كالشعلة. سألتك إذا كان معكم موتى؟"

- لا أعلم.

- الموتى هنا، هل تسمع؟ أما الآخرون فإلى فوق، إلى المرسم، هل تفهم؟

- نعم، نعم.

لكنني لم أكن قد مت بعد، كنت ضمن الآخرين، فحملوني صاعدين الدرج. في البداية ساروا بي في ممر طويل خافت الإضاءة طُليت جدرانه باللون الأخضر، على الجدران ثُبتت شماعات مقوسة سوداء عتيقة، ثم

لاحت أبواب عليها لافتات معدنية بيضاء: ١/٦ و ٢/٦، وبين البابين لمعت برقة تحت الزجاج في إطارها الأسود لوحة "المديا" للرسام فويرباخ^ ناظرةً إلى الأفق البعيد؛ ثم اقترب بابان: ١/٥ و ٢/٥ وبينهما عُلقت صورة فوتوغرافية للوحة "نازع الشوكة" - صورة رائعة تلمع في حمرة داخل الإطار البني. والعمود الضخم في المنتصف أمام مدخل الدرج كان أيضا هناك، وخلفه نسخة مقلدة من الجبس لإفريز معبد البارتنون الإغريقي، يبدو حقيقيا عتيقا بلونه الأصفر - ثم تعاقب كل شيء كما ينبغي أن يكون: الجندي الإغريقي المدجج بالسلاح، زاهي الألوان خطيرا ونافشا ريشه كالديك. وفي أسفل الدرج، على الحائط المطلي هنا بالأصفر، كانوا مُعلقين جميعا بالترتيب: من الأمير الأكبر وحتى هتلر ...

وهناك، في الممر الصغير الضيق، حيث رقدتُ أفقيا على المحفة أخيرا ولبضعة خطوات، هناك رأيت الصورة الجميلة جدا، والكبيرة جدا، والملونة جدا، صورة القيصر العجوز فريتس بزيه العسكري الأزرق السماوي وعيونه اللامعة، وبالنجمة الكبيرة الذهبية البراقة على صدره.

عدت إلى رقدتي المائلة فوق المحفة، مروا بي أمام الوجوه المميزة للأجناس المختلفة: هناك القبطان الآتي من الشمال بفمه الأبله يحدق كالنسر، والمرأة الغربية القادمة من ضفاف نهر الموزل .. نحيفة بعض الشيء حادة النظرات، والشرقي المبتسم بعبط ذو الأنف المتضخم كالبصلة، والوجوه الجانبية المسحوبة لرجال الجبال الذين تبرز لديهم تفاحة آدم؛ ثم لاح ممر آخر، حيث رقدت ثانية ولبضعة خطوات أفقيا على محفتي، وقبل أن يهم الحمالون بالصعود إلى الدرج الثاني استطعت أن

أراه: النصب التذكاري للمحارب بصليبه الحديدي الكبير ذهبي اللون، وعلى رأسه إكليل الغار الحجري.

مر كل ذلك بسرعة فائقة: لست ثقيلا، والحمالون كانوا يركضون. على كل حال: كل ذلك من الممكن أن يكون خداعا، درجة حرارتي عالية جدا، وكنت أشعر بالألم في كل مكان؛ في الرأس، في الذراعين، في القدمين. قلبي يدق كالمجنون، والمحموم يرى كل شيء!

لكن عندما مررنا أمام الوجوه المميزة للأجناس المختلفة، تتابعت عليّ كل الأشياء الأخرى: التماثيل النصفية الثلاثة ليوليوس قيصر وشيشرون ومارك أوريل، في أدب يقفون الواحد بجانب الآخر، نسخ رائعة التقليد، صفراء وتبدو أصلية تماما، صُفوا أمام الجدار بطريقة توحي بالقدم والمهابة. ثم جاء عمود هرميس[٩] عندما ملنا في زاوية الدرج، وفي نهاية الممر تماما - الذي كان هنا مطليا باللون الأحمر الوردي - عُلقت فوق مدخل المرسم اللوحة الكبيرة لوجه زيوس الفظيع، كبير آلهة الإغريق.. لكن وجه زيوس الفظيع مازال بعيدا. من خلال النافذة يمينا رأيت لهيب النيران، السماء كلها حمراء، وسحب سوداء كثيفة من الدخان كانت تمر بتؤدة ...

وجدت نفسي مجبرا أن أنظر تجاه اليسار ثانية، فرأيت ثانية لافتة فوق بابين: ١/١ و ٢/١، وبين البابين ذي اللون البني والرائحة العطنة لم ألمح إلا شارب نيتشه وأرنبة أنفه داخل الإطار المذهب، لأنهم لصقوا فوق النصف الآخر من اللوحة ورقة كُتب عليها: "العمليات الجراحية الصغيرة" ...

إذا رأيت الآن ... مرت الفكرة بسرعة في ذهني ... إذا رأيت الآن

... ولكن ها هي: صورة مستعمرة توغو، كبيرة ملونة، منبسطة كالرمح القديم، في طباعة فاخرة - وفي صدر الصورة، أمام بيوت المستعمرين، أمام الزنوج والجندي الذي وقف مشهرا سلاحه بلا أي معنى، كانت سباطة الموز الكبيرة، طبيعية في تصويرها كأنها حقيقة: يسارا سباطة، ويمينا سباطة، وعلى الموزة الوسطى في السباطة اليمنى، هناك شخبطة ما، رأيتها؛ فأنا الذي كتبتها ...

والآن فُتح باب المرسم على مصراعيه، تأرجحت تحت التمثال النصفي لزيوس، وأغلقت عيني. لا أريد رؤية أي شيء آخر. فاحت في المرسم رائحة اليود والخراء والشاش والتبغ، وساد الضجيج. وضعوني على الأرض، فقلت لأحد الحمالين: "ضع سيجارة في فمي، يسارا، فوق، في الجيب." وشعرت بأحدهم يتحسس جيبي، ثم قُدح عود كبريت، ووجدت في فمي السيجارة المشتعلة. سحبت نفسا، وقلت: "شكرا."

كل هذا - قلت لنفسي - ليس دليلا. ففي كل مدرسة ثانوية مرسم، وممرات مثبت في حوائطها المطلية بالأخضر والأصفر شماعات قديمة مقوسة، لا، ليس دليلا على أنني في مدرستي أن أرى المديا معلقة بين فصل خمسة أول وخمسة ثاني، وشارب نيتشه بين أولى أول وأولى ثاني - بالتأكيد هناك تعليمات تفرض تعليقه. لائحة النظام الداخلي في المدارس الثانوية للعلوم الإنسانية في بروسيا بشرق ألمانيا: المديا بين فصل ستة أول وستة ثاني، نازع الشوكة هناك، يوليوس قيصر ومارك أوريل وشيشرون في الممر، ونيتشه في الطابق الأعلى، حيث يدرسون الفلسفة. إفريز معبد البارتينون، وصورة بالألوان لتوغو. نازع الشوكة، وإفريز البارتينون هما في نهاية الأمر من الأشياء العتيقة والأصيلة التي

أثبتت وجودها في المدارس عبر الأجيال، ولست بالتأكيد أول تلميذ يخطر على باله أن يشخبط على موزة: تحيا توغو. وحتى النكات التي يتبادلها تلاميذ المدارس .. إنها لا تتغير أبدا. فوق كل ذلك: لعلي محموم أو أحلم.

لم أعد أشعر بألم الآن. في السيارة كان الأمر أسوأ؛ كنت أصرخ في كل مرة تمر السيارة فيها على إحدى المطبات الصغيرة، أما في الحفر الكبيرة فقد كان الوضع أفضل: كانت السيارة ترتفع وتهبط كأنها سفينة بين الأمواج. يبدو أن مفعول الحقنة - التي رشقوها في الظلام في مكان ما بذراعي - بدأ الآن يسري: شعرت آنذاك بالإبرة تنغرس في جلدي وبحرارة شديدة في أسفل ساقي.

لا .. لا يمكن أن يكون ذلك حقيقة، أخذت أفكر، فالسيارة لم تقطع كل هذه الكيلومترات: حوالي ثلاثين. ثم إنك لا تشعر بشيء، إحساسك لا ينبئك بذلك، فقط العينان؛ إحساسك لا ينبئك بأنك في مدرستك، مدرستك التي تركتها منذ ثلاثة أشهر فقط. ثماني سنوات ليست مدة هينة

- هل تريد أن تتعرف على كل ذلك بعد ثماني سنوات بعينيك فقط؟

من خلف أجفاني المغلقة استعدت رؤية كل شيء، كفيلم جرى أمام عيني: الممر السفلي، الطلاء الأخضر، صعود الدرج، الطلاء الأصفر، النصب التذكاري للمحارب، الممر، صعود الدرج، يوليوس قيصر وشيشرون ومارك أوريل ... هرميس، شارب نيتشه، توغو، وجه زيوس الفظيع ...

بصقت سيجارتي وصرخت؛ كان من المفيد دائما أن أصرخ؛ على المرء أن يصرخ عاليا، ما أروع الصراخ، صرخت كالمجنون. حتى عندما

انحنى شخص تجاهي لم أفتح عيني، شعرت بأنفاس غريبة، دافئة وكريهة، وفاحت رائحة التبغ والبصل. سألني صوت بهدوء: "ماذا بك؟"

"أريد أن أشرب"، قلت، "وسيجارة أخرى، في الجيب، فوق." وشعرت بأحدهم يتحسس جيبي مرة أخرى، ثم قُدح عود كبريت مرة أخرى، ووجدت في فمي سيجارة مشتعلة.

سألت: "أين نحن."

"في بندورف."

فقلت "شكرا" وسحبت نفسا. يبدو إذن أنني في بندورف، أي في مدينتي، وإذا لم تكن حرارتي مرتفعة عن المعتاد، فمن المؤكد أنني في مدرسة ثانوية للدراسات الإنسانية: بالتأكيد هذه مدرسة. ألم يصرخ الصوت في الدور الأرضي: " أما الآخرون فإلى المرسم." أنا كنت من الآخرين، أنا عشت؛ يبدو أن الذين عاشوا هم الآخرون. إذن هذا هو المرسم، وإذا لم أخطئ في السمع، فلماذا أخطئ في الرؤية؟ إذن فالأمر صحيح: لقد تعرفت على يوليوس قيصر وشيشرون ومارك أوريل، وهؤلاء لا يعلقون إلا في مدرسة ثانوية للدراسات الإنسانية؛ لا أعتقد أنهم يعلقون مثل هذه الكائنات في المدارس الأخرى، في الممرات وعلى الجدران.

أخيرا أحضر لي ماء؛ وشممت ثانية رائحة التبغ والبصل تفوح من فمه، ورغما عني فتحت عيني: وجه متعب، عجوز وغير حليق يطل من فوق بدلة رجال الإطفاء، وقال صوت عجوز: "اشرب يا زميل."

وشربت. كان ماء، لكن الماء رائع. شعرت بالطعم المعدني للإناء فوق شفتي، وكان جميلا أن أشعر أنني أعب كمية كبيرة من الماء، لكن

رجل الإطفاء انتزع الإناء من بين شفتي ومضى. صرخت، لكنه لم يستدر ناحيتي، فقط هز كتفيه متعبا وواصل المسير. أحد الذين يرقدون جانبي قال بهدوء: "الصراخ لا يجدي على الإطلاق. لم يعد لديهم ماء. المدينة تحترق، ألا تراها؟" كنت أراها من خلال النوافذ المعتمة، توهجت النيران وتصاعد فحيحها خلف الستائر السوداء، حمرة من وراء سواد، كمدفأة ألقوا فيها فحما جديدا. رأيتها: نعم، المدينة تحترق.

سألت الذي يرقد جواري: "ما اسم المدينة؟"

رد قائلا: "بندورف".

"شكرا."

وجهت نظري إلى الأمام تجاه النوافذ، وأحيانا تجاه السقف. مازال السقف سليما تماما، أبيض، مستو، ويحيط بحافته شريط من الجص على الطراز الكلاسيكي؛ لكن في كل المدارس هناك شريط من الجص على الطراز الكلاسيكي يحيط بالسقف في صالات الرسم، على الأقل في المدارس الثانوية للدراسات الإنسانية التي تتمتع بالعراقة والمستوى الرفيع. لا شك في ذلك.

ينبغي أن أعترف الآن لنفسي أنني أرقد في مرسم أحد المدارس الثانوية للدراسات الإنسانية في بندورف. في بندورف ثلاث مدارس ثانوية: مدرسة فريدريش الأكبر، ومدرسة ألبرتوس، والثالثة – هو أمر لا يحتاج إلى ذكر – الثالثة والأخيرة هي مدرسة أدولف هتلر. ألم يعلقوا في مدرسة فريدريش الأكبر صورة فريتس العجوز الملونة جدا، والجميلة جدا، والكبيرة جدا في أسفل الدرج؟ كنت في تلك المدرسة، ثماني سنوات بأكملها، ولكن أليس من المحتمل أن تكون هذه الصورة معلقة

في نفس المكان بالمدارس الأخرى، في مكان واضح لافت لنظر من يصعد الدرج الأول؟

الآن أسمع دوي المدفعية الثقيلة من الخارج. فيما عدا ذلك كاد الهدوء يخيم على المكان؛ إلا عندما تقتحم المكان طقطقة النيران وهي تفترس ما أمامها، وفي الظلام كنت أسمع صوت تهاوي عروق الخشب في مكان ما. دوت طلقات المدفعية بهدوء وانتظام، وقلت لنفسي: مدفعية تؤدي واجبها على خير وجه! أعرف أن تفكيرا كهذا وضيع، لكن هذا ما فكرت فيه. يا إلهي، كم كانت المدفعية مهدئة ومريحة: صوت مظلم خشن .. كعزف أرغن بارع رقيق. به رقي ما. نعم، أرى أن المدفعية تتسم بالرقي، حتى عندما تطلق قذائفها. صوت المدفعية مهيب، يثير لديك فورا الإحساس بالحرب كما تعرفها في الكتب المصورة ... ثم فكرت في عدد الأسماء التي سوف تُنقش على النصب التذكاري للمحارب، عندما ينصبونه من جديد، بعد أن يزودونه هذه المرة بصليب حديدي مذهب أكبر حجما، وكذلك بإكليل غار حجري أكبر وأكبر - وفجأة انتابتني فكرة: إذا كنت فعلا في مدرستي القديمة، فسوف ينقشون اسمي أنا أيضا على الحجر، وفي سجل المدرسة التذكاري سوف يكتبون خلف اسمي: "انتقل من المدرسة إلى ميدان القتال، وسقط شهيد الـ ..."

لكنني لم أكن أدري بعد شهيد ماذا، ولم أكن أدري إذا كنت بالفعل في مدرستي القديمة. لابد أن أعرف ذلك الآن وبأي ثمن. على النصب التذكاري للمحارب لم يكن هناك شيئا مميزا، شيئا ملفتا للنظر .. مثله مثل كل النصب الأخرى، هو بالتأكيد نصب تذكاري جاهز

الصنع، بالتأكيد يحصلون عليه من مركز ما للتوزيع ...

تجولت ببصري في المرسم، لكنهم كانوا قد نزعوا اللوحات .. ماذا يستطيع المرء أن يرى في بعض الدكك المكومة في أحد الأركان؟ ماذا ترى في النوافذ، الضيقة العالية، الكثيرة، المصطفة بجوار بعضها حتى تسمح بأكبر قدر ممكن من الضوء أن ينفذ، كما ينبغي أن يكون الأمر في صالة رسم؟ قلبي لا ينبئني بشيء. ألم يكن سينبئني بشيء إذا كنت عشت في هذا المكان من قبل، ثمانية أعوام، وأنا أرسم مزهريات وأتمرن على زخرفة الخط: مزهريات زجاجية رومانية، رشيقة، رقيقة، رائعة التقليد، كان المدرس يضعها أمامنا على الحامل؛ والخطوط بمختلف أنواعها .. الخط الدائري والقديم والروماني والإيطالي؟ كرهت هذه الحصة كما لم أكره شيئا في المدرسة كلها، ساعات طوال وأنا ألوك الملل، لم أعرف أبدا كيف يرسمون مزهرية أو يزخرفون خطا. لكن، أين هي لعناتي؟ أين هي كراهيتي تجاه هذه الحيطان المملة الداكنة اللون؟ لم يتحدث في أعماقي شيء، وهززت رأسي صامتا. ودائما كنت أمحو، أبري القلم الرصاص، وأمحو ... ولا شيء ...

لم أكن أعرف على وجه الدقة درجة إصابتي، كنت أعرف فقط أنني لم أعد أستطيع تحريك ذراعيّ، والساق اليمنى أيضا، فقط اليسرى قليلا؛ كنت أعتقد أنهم ربطوا ذراعي بجسدي، ربطوها بقوة إلى درجة أنني لم أستطع تحريكهما.

بصقت السيجارة الثانية في الممر بين أجولة القش، وحاولت أن أحرك ذراعيّ، ولكنهما آلماني جدا حتى صرخت؛ وواصلت الصراخ، جميل دائما أن تصرخ، كنت أيضا حانقا لأنني لم أستطع تحريك ذراعيّ.

عندئذ وقف الطبيب أمامي. خلع نظارته محملقا فيّ، لم يقل شيئا، وراءه وقف رجل الإطفاء الذي أعطاني الماء. همسَ في إذن الطبيب، ثم وضع الطبيب النظارة أمام عينيه: رأيت بوضوح عينيه الكبيرتين الرماديتين، وحدقتيه اللتين ارتعشتا قليلا خلف عدسات النظارة السميكة. حدق فيّ طويلا، حتى أنني أشحت ببصري بعيدا، فقال بصوت خافت: "انتظر قليلا، قريبا سيحين دورك .."

ثم رفعوا الذي يرقد بجانبي وحملوه خلف السبورة؛ تابعتهم ببصري: كانوا قد فكوا أجزاء السبورة ووضعوها عرضيا، وأغلقوا الثغرة بين الحائط والسبورة بملاءة سرير، وفي الخلف توهج ضوء ساطع ...

لم يُسمع أي صوت إلى أن أزيحت الملاءة مرة أخرى وحملوا الذي كان يرقد بجانبي إلى الخارج؛ بوجوه متعبة لا مبالية جرجره الحمالون حتى الباب.

أغلقت عيني ثانية وقلت لنفسي، لابد أن تعرف ما هي إصابتك، وإذا كانت هذه مدرستك القديمة.

كنت أشعر بالبرودة واللامبالاة تجاه كل شيء، وكأنهم حملوني عبر متحف مدينة ميتة، عبر عالم بدا لي غريبا وغير مثير للاكتراث، بالرغم أن عيني تعرفت عليه، عيني فقط؛ ليس من المعقول أنني قبل ثلاثة أشهر كنت أجلس هنا، أرسم مزهريات وأزخرف الخط، وفي الفسحة أنزل إلى أسفل ومعي سندوتشات المربى بالزبد، مارا في طريقي بنيتشه، وهرميس، وتوغو، ويوليوس قيصر، وشيشرون، ومارك أوريل، بخطوات بطيئة حتى أصل إلى الممر السفلي حيث المديا، ثم أتجه إلى بواب المدرسة، بيرغلر، لأشرب عنده الحليب .. في تلك الحجرة الصغيرة المظلمة كان من الممكن أن تخاطر وتدخن سيجارة، بالرغم أن ذلك كان

ممنوعا. لقد حملوا الراقد جواري بالتأكيد إلى أسفل حيث يرقد الموتى، ربما رقد الموتى في حجرة بيرغلر الصغيرة المظلمة، حيث كانت تفوح رائحة الحليب الدافئ، والتراب، وتبغ بيرغلر الرديء.

أخيرا عاد الحمالون إلى الصالة، والآن رفعوني وحملوني خلف السبورة. تأرجحت ثانية، الآن عبر الباب، وأثناء مروري المتأرجح رأيت وتأكدت: فوق الباب كان هناك في يوم ما صليب معلق، عندما كانت المدرسة تسمى مدرسة توماس. ثم جاء الوقت الذي نزعوا فيه الصليب، لكن أثره ظل واضحا عنيدا: بقعة صفراء داكنة صليبية الشكل زاهية اللون، ربما بدت البقعة أوضح من ذلك الصليب العتيق، الضعيف، الصغير الذي علقوه؛ بقيت علامة الصليب نظيفة جميلة على الدهان الباهت للحائط. لغضبهم أمروا آنذاك أن يُطلى الحائط كله من جديد، لكن ذلك لم يجد نفعا؛ لم يختر المبيض درجة اللون المناسبة: فبقي الصليب في مكانه، بني اللون واضحا، أما الحائط كله فكان ورديا. تعالى سبابهم، لكن دون جدوى: بقي الصليب في مكانه، بني اللون واضحا على الحائط الوردي، اعتقد أن ميزانية الطلاء نفذت، ولم يستطيعوا فعل شيء. بقي الصليب، وإذا دققت النظر رأيت الأثر المائل للغصن الذي يعلقونه تذكارا لآلام المسيح، على عرق الخشب الأيمن كان أثر الغصن واضحا، حيث كان يثبته بواب المدرسة بيرغلر، عندما كان مسموحا بتعليق الصلبان في المدارس ...

كل ذلك خطر على بالي في جزء من الثانية، عندما حملوني مارين بالباب ومتوجهين إلى السبورة، حيث توهج الضوء الساطع ...

رقدت على مائدة العمليات، ورأيت نفسي بوضوح تام، ولكن

صغيرا جدا ومنكمشا، رأيتني في زجاج المصباح الشفاف المعلق بأعلى، ضئيلا وأبيض، كطرد بريدي نحيف في لون الشاش، مثل جنين دقيق رقيق: إذن فهذا الذي فوق هو أنا.

أدار الطبيب ظهره لي، ووقف عند مائدة ينبش في الأدوات الجراحية؛ عريضا عجوزا وقف رجل الإطفاء أمام السبورة مبتسما لي ابتسامة مرهقة حزينة، كان وجهه الملتحي القذر يشبه وجه النائم؛ من فوق كتفيه رأيت على الجانب الخلفي للسبورة المتسخة شيئا جعل قلبي ينبض بالإحساس لأول مرة منذ أن دخلت بيت الموتى هذا: في مكان خفي في قلبي استولى عليّ فزع عميق مرعب، وبدأ قلبي يخفق بقوة: ها هو خط يدي على السبورة. فوق، في السطر العلوي. أعرف خطي: الأمر أسوأ من أن ترى نفسك في المرآة، وليس هناك أي إمكانية أن أشكك في هوية خطي. كل الأشياء الأخرى لم تكن دليلا: لا المديا، ولا نيتشه، ولا الوجوه الجبلية، ولا موز توغو، لا، ولا حتى علامة الصليب فوق الباب: كل ذلك كان في كل المدارس متشابها، لكنني لا أعتقد أنهم كتبوا بخط يدي على سبورات المدارس الأخرى. مازال القول المأثور هناك، القول الذي كنا مجبرين على كتابته في تلك الحياة اليائسة التي كنت أعيشها قبل ثلاثة أشهر فقط: أيها الجوّال، إذا وصلت أسبـ ... [10]

آه، أعرف، كانت السبورة صغيرة، وأخذ مدرس الرسم يسبني، لأنني لم أختر الحجم المناسب للحروف، ولأن الخط كان كبيرا، ثم قام هو بنفسه - وهو يهز رأسه - بكتابة الجملة بنفس الخط الكبير أسفل جملتي: أيها الجوّال، إذا وصلت أسبـ ...

سبع مرات كانت مكتوبة: بخط يدي، بالحروف القديمة، والقوطية،

والمائلة، والرومانية، والإيطالية والدائرية .. سبع مرات بوضوح لا يرحم: أيها الجوّال، إذا وصلت أسبـ ...

لبى رجل المطافئ نداء الطبيب الخافت وانحنى جانبا، وهكذا استطعت رؤية القول بأكمله .. كان فقط مشوها بعض الشيء، لأنني كتبت بحروف أكبر من اللازم.

ارتعشت عندما أحسست بوخزة في فخذي الأيسر، أردت أن أسند نفسي، لكنني لم أستطع: نزلت ببصري على جسدي، الآن أرى: لقد فكوا عني الأربطة، لم يعد لي ذراعان، ولا ساق يمنى، وفجأة سقطت إلى الخلف لأنني لم أستطع أن أسند نفسي، صرخت، تطلع الطبيب ورجل الإطفاء إليّ بفزع، لكن الطبيب هز كتفيه وضغط على مكبس الحقنة الذي هبط ببطء وهدوء؛ كنت أريد أن أنظر مرة أخرى إلى السبورة، لكن رجل الإطفاء كان يقف الآن بالقرب مني تماما مغطيا السبورة أحكم قبضته على كتفي، ولم أشم سوى رائحة دخان كريهة منبعثة من بدلته القذرة، لم أر إلا وجهه المتعب الحزين، ثم تعرفت عليه: إنه بيرغلر.

"حليب"، قلت له بصوت خافت.

ساقي الغالية

ها قد منحوني الآن فرصة. كتبوا لي بطاقة، يجب علي أن أذهب بها إلى المصلحة. وهاأنا قد ذهبت إلى المصلحة كانوا في غاية اللطف. أخذوا مني البطاقة وهمهموا. همهمت أيضا. وسألني الموظف:

- أي ساق؟

- اليمني.

- بالكامل؟

- بالكامل.

همهم مرة أخرى. ثم فتش في أوراق عديدة، وسمح لي بالجلوس.

أخيرا وجد الرجل ورقة بدت أنها هي التي يبحث عنها، وقال:

- أعتقد أنني وجدت شيئا يناسبك .. شيئا لطيفا .. تستطيع أن تمارسه وأنت جالس. ماسح أحذية في أحد المراحيض بميدان "الربوبليك"، ما رأيك؟

- لا أستطيع مسح الأحذية، لقد كنت دائما ألفت النظر بسبب سوء تنظيفي للحذاء.

رد قائلا:

- يمكنك التعلم. الإنسان يستطيع أن يتعلم كل شيء. الألماني

يستطيع كل شيء. بإمكانك، إذا كنت تريد، أن تتلقى دروسا مجانية في ذلك.

فجاوبته بهمهمة.

- هل اتفقنا؟

أجبته قائلا:

- لا.. لا أريد. أريد أن أحصل على معاش أكبر.

أجابني بكل لطف ورقة:

- أنت مجنون.

- لست مجنونا. لا يستطيع أحد أن يعوضني عن ساقي .. بيع السجائر لم يعد مسموحا لي، وها أنتم تخلقون العقبات.

إتكأ الرجل بظهره إلى المقعد، وأخذ نفسا عميقا، وانطلق يقول:

- يا صديقي العزيز .. ساقك غالية غلاء فظيعا. أنت في التاسعة والعشرين من عمرك، سليم القلب ومعافى البدن تماما. فيما عدا الساق. وستعيش حتى تبلغ السبعين. أرجوك أن تحسب: في الشهر سبعون ماركا ... اثنتا عشرة مرة في العام ... أي واحد وأربعون في اثنتي عشرة في سبعين. احسب من فضلك - دون الفوائد - ولا تعتقد أن ساقك هي الساق الوحيدة. ولست أيضا الوحيد الذي قد يُعمِّر. ثم تطلب زيادة المعاش فلتسامحني .. أنت مجنون.

فقلت له وقد إتكأت بظهري مثله وأخذت نفسا عميقا:

- يا سيدي، أعتقد أنك تبالغ في التقليل من شأن ساقي. ساقي أغلى من ذلك بكثير .. إنها ساق غالية غلاء لا يقدر. لست سليم القلب فقط، ولكني للأسف سليم العقل أيضا .. أنصت إلي.

- وقتي محدود للغاية.

فنهرته قائلا:

- أنصت! لقد أنقذت ساقي حياة جمع غفير يتقاضون الآن معاشا طيبا. كان ما حدث آنذاك كالآتي: كنت أرقد وحيدا تماما في مكان ما على جبهة القتال، وكان عليّ أن أرقب قدوم الأعداء حتى يستطيع الآخرون الفرار في الوقت المناسب. كان اللواء الخلفي قد تهيأ، ولم يشأ الفرار قبل الموعد المناسب، ولكن أيضا ليس بعده. في البدء كنا اثنين .. ولكنهم قتلوه .. لم يعد يكلف شيئا. صحيح أنه كان متزوجا، ولكن زوجته تتمتع بالصحة وتستطيع أن تعمل، فلست بحاجة للخوف عليها. أي أنه كان رخيصا رخص التراب. لم يمض عليه في الجندية سوى أربعة أسابيع .. ولم يكلف أكثر من بطاقة بريدية وبعضا من الخبز. كان جنديا شجاعا عرف على الأقل كيف يموت.

كنت، إذن، أرقد هناك وحيدا وقد تملكني الخوف. كان الجو باردا، وكنت أنا أيضا أريد الفرار .. نعم كنت أنوي الفرار في تلك اللحظة، ثم ...

فقال الرجل وقد بدأ يبحث عن قلمه:

- وقتي ضيق جدا.

- لابد أن تصغي إلي، فسوف يبدأ الجزء المثير في القصة. فبمجرد أن عزمت على الفرار، حدث ما حدث لساقي. ولأنه لم يكن هناك مفر من أن أظل راقدا، قلت لنفسي الآن تستطيع الإبلاغ، وأبلغت .. وهربوا كلهم .. بالترتيب .. اللواء في المقدمة وبعده الكتيبة وأخيرا الفصيلة .. وهكذا .. دائما بالترتيب. قصة سخيفة .. لقد نسوا أن يأخذوني معهم، هل تفهم؟ كانوا متعجلين للغاية. قصة سخيفة فعلا، فلو لم أفقد ساقي

لماتوا جميعا، اللواء والعقيد والرائد .. دائما حسب الأقدمية، ولكنتم في غير حاجة الآن لصرف معاشات لهم. والآن فلتحسب كم تكلف ساقي: اللواء يبلغ من العمر اثنين وخمسين، العقيد ثمانية وأربعين، الرائد خمسين، وجميعهم في أتم صحة، قلبا وعقلا، وبفضل نظام حياتهم العسكري فسوف يعمرون حتى يبلغوا الثمانين على الأقل مثل "هندنبورغ"[11]، فلتتفضل ولتحسب الآن: مائة وستون في اثنتي عشرة في ثلاثين، فلتعتبر أن المتوسط ثلاثون عاما على الأقل، أليس كذلك؟ إن ساقي لتصبح بذلك غالية غلاء جنونيا .. واحدة من أغلى السيقان التي أستطيع تخيلها. هل تفهم؟

فرد الرجل:

- أنت مجنون.

أجبته قائلا:

- لا. لست مجنونا. يؤسفني أنني سليم القلب والعقل، ومن المؤسف أيضا أنني لم أقتل قبل أن أصاب في ساقي بدقيقتين .. كنا سنوفر نقودا كثيرة.

وسألني الرجل: هل تقبل الوظيفة؟

فأجبته بهدوء: لا. وانصرفت.

قم .. قم وانهض

لم يعد بالإمكان قراءة اسمها على الصليب الخشبي عشوائي الصنع، غطاء التابوت الكرتوني الهش كان مكسورا، والتل الذي كان قائما منذ عدة أسابيع امتدت مكانه الآن بركة تعوم فيها الزهور المتسخة النتنة ومعها عدد من الفيونكات الباهتة اللون، وبينها أوراق الصنوبر الإبرية والأفرع العارية، مما كوّن تشكيلا بشعا. أما أعقاب الشموع فلابد أن يد سارق قد امتدت إليها ...

بصوت خافت ناديتها:

- قومي ... قومي وانهضي.

واختلطت دموعي بالمطر ذي الصوت الرتيب المنهمر منذ أسابيع.

وأغلقت عيني: خفت أن تتحقق أمنيتي. من خلف الجفن المغلق رأيت بوضوح غطاء التابوت الهش المكسور الذي لابد أنه يجثم الآن فوق صدرها، لم يستطع مقاومة كتل الطين التي تراكمت فوقه ببرودة ونهم حتى هبطت به إلى داخل التابوت.

وانحنيت لألتقط من الأرض اللزجة الزهور القذرة التي تزين القبر، عندئذ أحسست فجأة أن الأرض قد انشقّت من خلفي عن خيال فرض نفسه بغتة وبإلحاح كاللهب الذي يتطاير أحيانا من نار تم إخمادها.

رسمت الصليب بلهوجة، وألقيت بالزهور مُسرعا تجاه بوابة الخروج. انبثق ظلام المساء ثقيلا من الممرات الضيقة المحاطة بالشجيرات الكثيفة، وعندما وصلت إلى الطريق الرئيسي سمعت دقات الجرس الذي يدعو زوار الجبانة للخروج. لم أسمع وقع خطوات من أي مكان، ولم أر من أي جهة أثرا لإنسان، كل ما أحسست به أن هناك خيالا بلا شكل - ولكنه حقيقي - يحوم خلفي ويتعقبني.

أسرعت الخطو، أغلقت خلفي البوابة صدئة الصوت، وعبرت حوض الزهور الدائري في منتصف الشارع حيث تهاوت عربة ترام وقد استباح المطر المتساقط بطنها المنتفخ، بينما أخذت قطرات المطر الوديعة المشتهاة تنقر جسم العربة المعدني ...

تغلغل المطر داخل حذائي منذ فترة طويلة، ومع ذلك لم أشعر ببرد أو رطوبة؛ حمى ضارية كانت تنهش دمي حتى وصلت أطرافي. وفي غمرة الخوف الذي انقض عليّ من الخلف استولت عليّ مشاعر غريبة هي مزيج من السقم والحزن.

من بين الأكواخ السكنية البائسة التي تصاعد من مداخنها دخان هزيل، وبين السور الخشبي المُرقع المتهالك الذي يحيط بمزارع يميل لونها إلى السواد، ومارا بأعمدة البرق المتداعية التي بدت متمايلة في ظلمة الليل الزاحف، أخذت أمضي في طريقي بهذه الضاحية البائسة خلال طرق بدت بغير نهاية. أخطو بلا مبالاة على الحفر المليئة بالمياه، خطواتي تزداد سرعة وأنا أتجه نحو شبح المدينة المهلهل، والممتد كمتاهة الأحزان على طول الأفق مُختلطا بسحب المساء القذرة.

عن يميني ويساري ظهرت خرائب سوداء عملاقة، ثم هجمت عليّ

ضوضاء غريبة منبعثة من نوافذ بها إضاءة خافتة، ولاحت ثانية مزارع أرضها سوداء، ومرة أخرى ظهرت منازل .. فيلات متداعية - وشعرت بشيء فظيع جعل الرعب لا يتوقف عن التوغل داخلي جنبا إلى جنب مع الحمى التي تملكتني: كانت الدنيا ظلاما حالكا من خلفي، أما أمامي فلقد تكاثفت ظلمة المساء المعهودة؛ أنا أسحب الليل خلفي، سحبته من الأفق البعيد، وحيثما أخطو يحل الظلام. لم أر شيئا من ذلك كله، ولكنني كنت أعرف: إنني أسحب خلفي شراع الليل المنسدل بلا رحمة، أسحبه خلفي من قبر الحبيبة - حيث بُعث الخيال - وحتى هنا.

بدا العالم وكأنه خلا من الناس: الضاحية سهل هائل يطفح قمامة ... جبال واطئة من الأنقاض هي المدينة التي كانت تبدو بعيدة بعيدة، أما الآن فقد اقتربت بسرعة مريعة. توقفت مرات عديدة، شعرت بالظلام خلفي يتباطأ هو الآخر .. يتكاثف .. ثم يتردد ساخرا بي، ولا يلبث أن يزيحني من طريقة بقوة وديعة قاهرة.

لم أشعر إلا الآن أن العرق يتدفق غزيراً من كل جسمي. أمسيت أمشي بمشقة .. ثقيلا هو الحمل الذي كان عليّ أن أجره .. حمل العالم. كنت مربوطا به بحبال لا تُرى، وكان هو مربوطا بي، يشدني إليه حتى أنهكني. مدفوعا كنت للسير كبغل هزيل يهبط منحدرا، ويدفعه حمله إلى الهاوية دفعا لا مهرب منه. بكل قواي أوقفت نفسي مقاوما كافة الحبال التي لا تُرى. خطواتي أصبحت قصيرة تائهة، وكحيوان يائس ارتميت على اللجام الذي يُضيق عليّ الخناق، وشعرت وكأن قدمي غاصت في الأرض، إلا أنني وجدت بعض القوة لأنصب النصف الأعلى من جسدي إلى أن أحسست فجأة أنني لم أعد أستطيع، أنني لابد أن أتوقف

في مكاني .. كان الحمل قادرا على إزاحتي من طريقه؛ وخالجني شعور بأنني فقدت ما يمكنني الاستناد عليه، صرخت، وارتميت ثانية على اللجام الوهمي ... سقطت على وجهي، وتمزق الرباط. أحسست خلفي بحرية لا تُوصف روعتها. أمام عيني امتد سهل وضيء، وفيه كانت تقف .. هي، التي كانت ترقد في القبر البائس تحت الزهور القذرة. وكانت هي التي نادت عليّ هذه المرة بوجه باسم قائلة:

- قم ... قم وانهض.

ولكنني كنت قد نهضت وأسرعت إليها.

الشغل شغل

تاجر السوق السوداء الذي كنت أتعامل معه أصبح الآن شريفا. ظللت فترة طويلة لا أراه، منذ عدة شهور، وها أنا أكتشفه اليوم في حي آخر تماما من أحياء المدينة، بأحد التقاطعات المزدحمة بالمرور. يمتلك هناك كشكا خشبيا مطليا بلون أبيض رائع من نوعية ممتازة، وللكشك سقف قصديري فخم ومتين وجديد تماما يحميه من المطر والبرد. يبيع بالكشك السجائر والمصاصات .. كل شيء أصبح الآن شرعيا. للوهلة الأولى سعدت .. نعم، الإنسان يسعد عندما يعود شخص إلى الحياة الطبيعية. عندما تعرفت عليه كانت أحواله سيئة، وكنا حزانى. كنا آنذاك نرتدي على الرأس كاب الجندية القديم، وبمجرد ما أحصل على نقود كنت أذهب إليه، أحيانا كنا نتبادل الحديث .. عن الجوع، عن الحرب، وكان في بعض الأحيان يهديني سيجارة عندما أكون مفلسا. أحضرت له في أحد المرات بعض كوبونات الخبز، فقد كنت أعمل آنذاك في تكسير الأحجار لحساب أحد الخبازين.

الآن تبدو أموره طيبة. هيئته تبهر الأنظار. امتلاء خدوده لا يفسره سوى أنه يتناول أطعمة دسمة بانتظام. تعبيرات وجهه تظهر ثقته بنفسه. لاحظت أنه يلاحق فتاة صغيرة قذرة بالشتائم المهينة ويصرفها عنه لأنها

كانت تريد شراء مصاصة وينقصها خمسة بفنكات. في أثناء ذلك لم يتوقف لسانه عن الدوران صعودا وهبوطا في فمه، وكأنه يقضي الساعات ليُخلص أسنانه من ألياف اللحم العالقة بها.

كان مشغولا جدا .. الناس تشتري سجائر كثيرة من عنده، ومصاصات أيضا.

ربما لم يكن عليّ أن أفعل ذلك .. ذهبت إليه وناديته: "إرنست"، وأردت التحدث معه. لقد كنا – تجار السوق السوداء آنذاك – نتبسط جميعا في الحديث مع بعضنا، ونتحادث بغير كلفة.

دُهش دهشة شديدة، ونظر إلي بتعجب قائلا: "مَن تقصد؟". لاحظت أنه تعرف عليّ ولكنه لم يكن يريد أن يتعرف عليه أحد. صمتُ، وتصرفت كأنني لم أنطق أبدا باسمه، اشتريت بضع سجائر، فقد كان معي بعض النقود .. وانصرفت. ظللت أراقبه فترة؛ لم يأت الترام الذي أنتظره، ولم يكن لدي أدني رغبة في الذهاب إلى البيت. في البيت يأتيني دائما أشخاص يطلبون مالاً: صاحبة البيت تطلب الإيجار، ومحصل فاتورة الكهرباء. كما أنه ممنوع التدخين في البيت، صاحبة البيت تشم كل شيء، عندئذ ينتابها الغضب الشديد وأسمعها بأذني تصرخ قائلة إنني للتبغ أملك مالا، أما للإيجار فلا. أن يدخن الفقراء فتلك خطيئة، وخطيئة أيضا إذا شربوا الخمر. أعرف أنها خطيئة، لذلك لا أفعلها إلا في الخفاء. أدخن خارج المنزل، وفي بعض الأحيان عندما أرقد على فراشي مستيقظا ويعم الهدوء البيت، حينئذ أعلم أنه لن يبقى للدخان أثر حتى الصباح، فأدخن في البيت أيضا.

الفظيع في الأمر أنني لا أعمل. لا بد للإنسان أن يعمل. هكذا

يقولون. كانوا آنذاك كلهم يقولون إن هذا ليس مهما - لا نحتاج إلا جنودا. والآن يقولون إن الإنسان يجب أن يعمل. هكذا فجأة. يقولون إن من الكسل ألا يعمل الإنسان. ولكن الأعمال التي يطلبونها مني لا أريد القيام بها: تنظيف الخرائب ونقل الأحجار وما أشبه. بعد مرور ساعتين أتصبب عرقا وتغيم الدنيا أمام عيني، وعندما أذهب إلى الأطباء يقولون: لا شيء. لعلها الأعصاب. يتحدثون الآن كثيرا عن الأعصاب. ولكنني أعتقد أنها خطيئة أن يكون للفقراء أعصاب. فقر وأعصاب - هذا أكثر مما يتحملون. ولكن من المؤكد فعلا أن أعصابي تالفة، فقد كنت جنديا لسنوات طويلة طويلة. تسع سنوات، على ما أعتقد. ربما أكثر، لا أعلم على وجه الدقة. كنت أود آنذاك أن أعمل، كانت رغبتي عظيمة في أن أصبح تاجرا. كان ذلك آنذاك - لم التحدث عنه الآن؟ ليست لدي الآن أقل رغبة في أن أصبح تاجرا. أحب الأشياء إلى قلبي أن أرقد على فراشي وأحلم. عندئذ أحسب كم مائة ألف يوم من أيام العمل سيقضونه في بناء ذلك الجسر أو تلك العمارة الشاهقة .. ثم يخطر على بالي أنهم يستطيعون في دقيقة واحدة أن يدمروا الجسر والعمارة. فلماذا العمل إذن؟ أجد أنه من العبث أن نظل نعمل. أعتقد أن هذا ما يدفعني إلى الجنون عندما أحمل الأحجار أو أنظف الخرائب ليستطيعوا إعادة بناء مقهى.

لقد قلت إن السبب هو الأعصاب، ولكني أعتقد أن السبب الحقيقي هو أن الأمر لا معنى له.

وعلى كل حال فالأمر سيان عندي فيم يفكرون. ولكنه فظيع ألا تملك نقودا أبدا. الإنسان - ببساطة - لابد أن يمتلك نقودا. لا غنى

عنها. هنا عداد كهرباء، والإنسان لديه مصباح، ويحتاج في بعض الأحيان إلى نور طبعا - ويضغط المرء على زر المصباح فتشع النقود ضوءا. وحتى إذا لم تحتج إلى ضوء فلابد أن تدفع إيجار العداد ذاته. أو الإيجار عموما. ويبدو أن الإنسان في حاجة أيضا إلى غرفة. في البداية سكنت في قبو - لم يكن ذلك سيئا، كان لدي فرن، وكنت أسرق قطع الفحم. ولكنهم طردوني من مأواي، بعثتهم الجريدة، وصوروني، وكتبوا عني مقالة بها صورة: بؤس العائدين إلى الوطن. وكان لابد أن أنتقل إلى مأوى آخر. قال لي الرجل في مصلحة الشؤون الاجتماعية إن المسألة بالنسبة له مسألة كرامة، وكان لابد أن أقبل الغرفة. من الطبيعي أنني أحيانا أكسب بعض النقود أيضا. هذا طبيعي. الناس يكلفونني بشراء شيء، أو حمل الفحم ورصه بإتقان تام في ركن من أركان القبو. أرص الفحم بدقة وعناية بالغة، ولا أتقاضى عن ذلك إلا أجرا زهيدا. بطبيعة الحال لا أكسب كثيرا، بل لا أكسب أبدا ما يكفي لدفع الإيجار، يكفي أحيانا للكهرباء، لبضعة سجائر والخبز ...

عندما وقفت عند الناصية فكرت في كل ذلك.

وتاجر السوق السوداء - الذي أصبح الآن شريفا - كان من حين لآخر ينظر إلي نظرات ريبة. هذا الحلوف يعرفني جيدا .. عندما يتحادث إثنان يوميا لمدة عامين تقريبا فهما بالتأكيد يعرفان بعضهما البعض. لعله يعتقد أنني سأسرق منه شيئا. لست غبيا إلى هذا الحد، أن أسرق من كشكه وهو مزدحم بالناس، حيث يمر في كل دقيقة ترام، ومع وجود شرطي يقف عند الناصية. أنا أمارس السرقة في أماكن أخرى تماما: طبعا أسرق أحيانا .. فحما وخلافه. وخشبا أيضا. مؤخرا سرقت رغيف

خبز من أحد المخابز. سار الأمر بسرعة وسهولة عجيبتين. أخذت الرغيف ببساطة وسرت خارجا، خرجت بهدوء، ولم أبدأ في الجري إلا عند الناصية التالية. لم تعد للمرء أعصاب.

ولكنني لن أسرق في ناصية كهذه على الرغم من سهولة ذلك أحيانا .. أعصابي تلفت. أتى ترام بعد الآخر، وترامي أيضا، وتأكدت من رؤية إرنست وهو ينظر إلي بطرف عينيه عندما جاء ترامي. مازال هذا الحلوف يعرف تماما رقم الترام الذي أركبه!

إلا أنني رميت عقب السيجارة الأولى، وأشعلت الثانية، وبقيت واقفا. كان بإمكاني في وقفتي هذه أن أجمع أعقاب السجائر. ولكن شخصا كان يحوم ليلتقط تلك الأعقاب، ولا بد للإنسان أن يفكر أيضا في زملائه. مازال هناك من يعمل جامعا للأعقاب. ليسوا دائما نفس الأشخاص. في فترة الأسر رأيت ضباطا برتبة عقيد يلتقطون الأعقاب. ولكن ذلك الشخص لم يكن عقيدا. أخذت أراقبه. له طريقته. كعنكبوت يقبع في شبكته. كان يتخذ كوما من أكوام الأنقاض ملاذا له، وعندما يجيء ترام أو ينطلق آخر يخرج من جحره ويسير هادئا مطمئنا بحذاء الرصيف جامعا للأعقاب. كنت أود الذهاب إليه والتحدث معه، أشعر بالانتماء إليه: لكنني أعرف أن لا فائدة من ذلك؛ هؤلاء الصبية لا ينطقون بكلمة.

لا أعرف ماذا جرى لي، ولكن في ذلك اليوم لم تكن لدي أي رغبة في الذهاب إلى البيت. مجرد كلمة: البيت. كل شيء كان لدي سواء، جاء ترام ثان ولم أركبه، وأشعلت سيجارة أخرى. لا أعرف ماذا ينقصنا. ربما يكتشف ذلك في يوم ما أستاذ في الجامعة ويكتبه لنا في الجريدة:

لديهم تفسيرات لكل شيء. ما كنت أتمني سوى أن تكون لدي أعصاب للسرقة كما كنت أفعل في الحرب. كنا نسرق آنذاك بسرعة وسهولة. آنذاك - في الحرب - كانوا يجبروننا على السرقة إذا كان هناك ما يُسرق. كانوا يكلفوننا بالسرقة، وهكذا كنا نذهب ونسرق. أما الآخرون فكانوا لا يفعلون شيئا سوى مشاركتنا في التهام الطعام وفي السكر، بل لقد كانوا أحيانا يرسلون مما سرقنا إلى بيوتهم - كانوا يفعلون كل شيء، ما عدا السرقة. أعصابهم لا غبار عليها، والقميص الأبيض أيضا.

عندما رجعنا إلى الوطن كانوا قد نزلوا من الحرب، تماما كما ينزلون من ترام هدأ من سرعته بعض الشيء في المنطقة التي يسكنون فيها، قفزوا دون أن يدفعوا ثمن التذكرة. حادوا عن الطريق قليلا، ثم دخلوا البيت، انظر هناك: خزانة الكتب مازالت في مكانها .. المكتبة ليس عليها سوى بعض الغبار، الزوجة لديها بطاطس في القبو، ومخللات أيضا، حضنوا زوجاتهم قليلا - كما يقتضي الواجب، وفي الصباح التالي ذهبوا للسؤال عما إذا كانت الوظيفة مازالت شاغرة. لم تزل الوظيفة شاغرة. كل شيء لا غبار عليه. بدأ الاشتراك في التأمين الصحي من جديد، وأجريت لهم عملية تنظيف من النازية - تماما كما تذهب للحلاق وتسمح له بإزالة ذقنك المزعجة. وتحدثوا عن نياشين، وإصابات جرحى، وأعمال بطولية، وأخيرا اكتشف المرء أنه لم يكن سوى إنسان شجاع قام بواجبه. بل لقد أعطوهم اشتراك أسبوعي لركوب الترام مجانا .. وهو أفضل مؤشر على أن الأمور تسير - بالفعل - سيرا طيبا.

أما نحن فقد استمر الترام يسير بنا، وانتظرنا أن تجيء محطة نعرفها حتى نخاطر بالنزول: لكن المحطة لم تأت. هناك من استمر معنا مسافة، ثم قفز بعد قليل في مكان ما، متظاهراً بالوصول إلى محطته.

أما نحن فقد واصلنا السفر، وواصلنا السفر، أجرة السفر تتزايد من تلقاء نفسها، وكان علينا أيضا أن ندفع أجرة الأمتعة الثقيلة .. تركة العدم الرصاصية التي كان علينا أن نجرها معنا. مر علينا مفتشون لا عدد لهم، فكنا نريهم جيوبنا الخاوية ونحن نهز الكتفين، لم يكن باستطاعتهم أن يلقوا بنا خارجا؛ فالترام يسير بسرعة كبيرة - "ونحن أيضا بشر" - ولكنهم يسجلون اسمنا، ويسجلونه، إنهم يدونون اسمنا على الدوام، والترام يزيد دائما من سرعته، الشطار استطاعوا القفز في أي مكان، عددنا آخذ في التناقص، وشجاعتنا ورغبتنا في النزول تقل رويدا رويدا. كنا قد انتوينا سرا أن نترك الحقائب في الترام عند وصولنا المحطة الأخيرة، ندعها لمكتب المفقودات ليتولى بيعها بالمزاد العلني، لكن المحطة لم تأت، وثمن التذكرة يرتفع، وسرعة الترام تتضاعف، ونظرات مفتشي الترام تزداد صرامة .. نحن عصابة أحاطت بها الشبهات من كل جانب.

رميت بعقب السيجارة الثالثة أيضا، ومشيت ببطء في اتجاه المحطة. الآن أريد الذهاب إلى البيت. اعترتني دوخة، لا ينبغي على المرء أن يكثر من التدخين ومعدته خاوية - أعرف. لم أعد أنظر هناك حيث يمارس تاجر السوق السوداء - سابقا - تجارته المشروعة الآن؛ بالتأكيد ليس لدي حق أن أغضب، لقد فعلها، تمكن من القفز سالما، في اللحظة المناسبة، ولكنني لا أعلم، هل لابد عليه لذلك أن يصرخ في وجه طفل

ينقصه خمسة بفنكات لشراء مصاصة؟ لعل هذا جزء من التجارة المشروعة - لا أعرف.

قبل أن يأتي ترامي بقليل مر الزميل مرة أخرى أمام الرصيف مطمئن النفس ليجمع الأعقاب، مشى أمام المنتظرين .. أعرف أنهم لا يحبون رؤية ذلك، يفضلون ألا توجد مثل هذه المناظر .. لكنها موجودة..

لم أنظر إلى إرنست مرة أخرى إلا عندما ركبت الترام، ولكنه كان ينظر بعيدا وينادي: شيكولاتة، مصاصات، سجائر .. كله مبُاح. لا أعرف السبب، لكن لا بد أن أقول أنه كان يعجبني فيما مضى أكثر، عندما لم يكن يطرد أحدا لأن خمسة بفنكات تنقصه ... لكنه يشتغل الآن شغلا حقيقيا - والشغل شغل.

خالي فْريد

خالي فْريد   Fredهو الإنسان الوحيد الذي يهوِّن عليّ ذكرى سنوات ما بعد ١٩٤٥ . كان قد عاد من الحرب بعد ظهر يوم صيفي، يرتدي ملابس بسيطة، وليس لديه شيئا سوى علبة صفيح مربوطة بحبل حول عنقه. كان يمشي بصعوبة وكأن أعقاب السجائر التافهة الوزن التي احتفظ بها بعناية داخل علبة صغيرة تُثقل عليه. احتضن أمي، وقبّل أختي، وقبلني، ثم غمغم بكلمات: "خبز، نوم، تبغ"، وتدحرج على الكنبة الكبيرة. وهكذا احتفظُ بصورته في ذاكرتي كإنسان قامته أطول من كنبتنا بكثير، مما أجبره أن يطوي ساقيه، أو يتركهما - ببساطة - معلقة في الهواء. كلا الإمكانيتين دفعتاه إلى أن يتدفق في الحديث غاضبا عن أصل أجدادنا الذين ندين لهم بالفضل في اقتناء قطعة الأثاث الثمينة تلك. كان يطلق على ذلك الجيل الطيب تسميات مثل "المتعفنين الشائهين"، ثم يصب احتقاره على ذوقهم بسبب القماش ذي اللون الوردي اللاذع الذي كان يكسو الكنبة. لكن ذلك لم يمنعه بأي حال من أن ينغمس في نوم لا يفيق منه .

أما أنا فقد كنت أقوم آنذاك بمهمة شائكة لا يحسدني عليها أحد بين أفراد أسرتنا الفاضلة: كنت - آنذاك في الرابعة عشرة من عمري -

ألعب دور همزة الوصل الوحيدة بيننا وبين تلك المؤسسة العظيمة التي كنا نطلق عليها السوق السوداء. مات أبي في الحرب، ومعاش أمي هزيل، وهكذا كان عليّ أن أقوم كل يوم تقريبا ببيع أجزاء صغيرة من ممتلكاتنا التي استطعنا إنقاذها، أو استبدالها مقابل الخبز والفحم والتبغ. كان الفحم في تلك الفترة سببا لانتهاك جسيم في مفهوم الملكية، ذلك الانتهاك الذي يطلقون عليه اليوم كلمة قاسية، هي: سرقة. وهكذا كنت أخرج كل يوم تقريبا إما للسرقة أو للبيع، وكانت أمي - على الرغم من إدراكها ضرورة ذلك الفعل القبيح - تنظر إليّ في الصباح عندما أذهب لأداء واجباتي المعقدة والدموع تملأ عينيها . كنت استبدل وسادة برغيف خبز، فنجانا أثريا مقابل بعض البُرغل، أو ثلاثة أجزاء من مؤلفات غوستاف فرايتاغ لقاء خمسين جراما من البُن - واجبات، وإن كنت أقوم بها بحماس رياضي، إلا أنني لم أستطع التخلص أثناء أدائها من الشعور بالسخط والخوف. مفهوم القيم - هكذا أسماه الكبار في تلك الأيام - كان قد تزحزح عن مكانه تزحزحا كبيرا؛ لذلك كانت شبهات عدم الأمانة تحوم حولي أحيانا لأن قيمة بعض الأشياء التي أعرضها للبيع لم تكن تتطابق على الإطلاق مع تلك القيمة التي كانت أمي تعتبرها مناسبة. يالها من مهمة مريرة أن تتوسط بين عالمين مختلفين في القيم .. لكن يبدو أنهما يتقاربان الآن.

أيقظ وصول خالي فريد فينا جميعا شوقنا إلى يد رجل قوية تساعدنا، لكنه سرعان ما خيب آمالنا. منذ الأيام الأولى ركبني هم عظيم بسبب شهيته للطعام. وعندما لم أتردد في التحدث مع أمي في هذا الشأن، رجتني أن أترك له بعض الوقت حتى "يعود إلى نفسه". نحو

ثمانية أسابيع احتاجها خالي حتى عاد إلى نفسه. وبالرغم من كل اللعنات التي كان يطلقها لصغر الكنبة، فقد كان يهنأ بالنوم فوقها وهو يقضي يومه غافيا، أو وهو منهمكا في أن يشرح لنا بصوت كله معاناة أي الأوضاع يفضلها أثناء النوم.

أعتقد أنه كان يفضل آنذاك وضع العدّاء قبل بدء العدو على كل الأوضاع الأخرى. كان يحب أن يرقد بعد الأكل على ظهره، ضاما ساقيه وهو يلتهم باستمتاع بالغ قطعة خبز كبيرة، ثم يلف لنفسه سيجارة بعد ذلك، ويستغرق في النوم انتظارا لطعام العشاء. كان خالي مديد القامة، شاحبا، وعلى ذقنه ندبة على شكل إكليل جعلت وجهه يشبه تمثالا مخدوشا من المرمر. كنت أحبه جدا بالرغم أن شهيته واحتياجه للنوم ظلا مصدر قلقي. كان خالي الإنسان الوحيد الذي كنت أستطيع على الأقل أن أتناقش معه حول السوق السوداء بدون أن نتشاجر. يبدو أنه كان على علم بالخلاف القائم بين عالمي القيم.

لم يستسلم أبدا لإلحاحنا المستمر أن يحكي لنا عن الحرب مُدعيا بأن الأمر لا يستحق. الشيء الوحيد الذي كان يقصه علينا بين الحين والآخر هو ما حدث له أثناء كشف اللياقة الطبي، الذي اقتصر في معظمه على الأمر الذي أصدره إنسان يرتدي الزي العسكري إلى خالي فريد بأن يتبول في أنبوبة زجاجية - وهو أمر لم يكن باستطاعة خالي أن يلبيه على الفور، وبذلك خيم سوء الطالع على مستقبله العسكري منذ البداية. كان يدعي أن الاهتمام الفائق ببوله من جانب الرايخ الألماني[١٢] قد ملأه بشك هائل، ثم تأكدت شكوكه خلال سنوات الحرب الست على نحو يبعث على القلق.

كان يعمل قبل الحرب محاسبا، وبعد أن انقضت أول أربعة أسابيع على كنبتنا، طالبته أمي بوداعة أخوية أن يسأل عن أخبار شركته القديمة. هذا الطلب قام خالي بتحويله برفق إليّ. كل ما استطعت التوصل إليه هو كومة من الأنقاض ارتفاعها حوالي ثمانية أمتار لم يبق فيها حجر على آخر، عثرت عليها في أحد أحياء مدينتنا المدمرة بعد مسح مجهد استمر لمدة ساعة. تلقى خالي فريد نتائج تحرياتي باطمئنان تام. رجع بظهره إلى الوراء، ولف لنفسه سيجارة، وأومأ لأمي منتصرا راجيا إياها أن تبحث عن أشيائه. في أحد أركان غرفة نومنا كان هناك صندوق أُحكم إغلاقه بالمسامير، قمنا بفتحه بالشاكوش والكماشة وكلنا ترقب. كل ما وجدناه: ٢٠ رواية متوسطة الحجم والمستوى، ساعة جيب ذهبية اللون علاها التراب لكنها سليمة، زوجان من حمالات البنطلون، كراسات، شهادة الدبلوم الصادرة عن الغرفة التجارية، ودفتر توفير به ١٢٠٠ مارك. أعطوني الدفتر لأحضر النقود، والأشياء الأخرى لأبيعها، بما فيها شهادة دبلوم الغرفة التجارية التي لم تجد مَن يشتريها لأن اسم خالي فريد كان مكتوبا بالحبر الأسود. وهكذا ارتحنا لمدة أربعة أسابيع من كافة هموم الحصول على خبز وتبغ وفحم، الأمر الذي خفف عني كثيرا، خاصة أن كل المدارس كانت قد فتحت أبوابها من جديد داعية التلاميذ إليها؛ لذا طالبوني أن استكمل تعليمي. ومازلت حتى يومنا هذا – على الرغم أنني أتممت تعليمي منذ زمن بعيد – أحتفظ بذكريات رقيقة لذلك الحساء الذي كانوا يوزعونه، لاسيما أننا كنا نحصل على هذه الوجبة الإضافية دون أي عناء يُذكر، وهو ما أضفى على المرحلة التعليمية كلها جوا بهيجا عصريا.

لكن الحدث الأعظم في تلك الفترة كان المبادرة التي قام بها خالي بعد انقضاء أكثر من ثمانية أسابيع على عودته السعيدة إلى الوطن. نهض خالي من فوق الكنبة في صباح يوم من أواخر الصيف، وانهمك في حلاقة ذقنه بطريقة أصابتنا بالرعب، ثم طلب ملابس نظيفة، واستعار دراجتي واختفى. كانت عودته المسائية مصحوبة بضجيج هائل ورائحة نبيذ قوية - الرائحة فاحت من فم خالي، أما الضجيج فقد انبعث من نصف دستة من الجرادل القصديرية التي كان خالي يربطها معا. لم تتبخر حيرتنا إلا عندما عرفنا عزمه أن يبعث تجارة الزهور في مدينتنا الخراب إلى الحياة مرة أخرى. أمي - التي ملأتها الشكوك تجاه عالم القيم الجديد - هاجمت المشروع مدعية أنه ليس هناك احتياج للزهور. لكنها أخطأت.

كان صباحا يستحق الذكر، عندما ساعدنا خالي في حمل الجرادل المليئة بالزهور اليانعة إلى محطة الترام حيث بدأ تجارته. ومازلت حتى اليوم أحتفظ في ذاكرتي بمنظر زهور الداليا الصفراء والحمراء، والقرنفل المُنَدّى. ولن أنسى أبدا كيف بدا خالي رائع المنظر وهو يقف وسط الأشكال الرمادية وأكوام الأنقاض، ثم بدأ يصيح على زهوره بصوت رنان.

لست بحاجة للتحدث عن تطور تجارته: لقد حققت أرباحا فلكية. ما كادت تنقضي أربعة أسابيع حتى كان مالكا لثلاث دستات من الجرادل القصديرية، ثم امتلك فرعين، وبعد مضي شهر أصبح من ممولي مصلحة الضرائب. بدا لي وجه المدينة وكأنه قد تغير بأكمله: أكشاك الزهور بدأت تغزو النواصي، لم يعد بالإمكان تلبية كل الطلبات. ازداد

عدد الجرادل التي اشتراها خالي، وكذلك الأكشاك والعربات الخشبية التي كلف النجارين بصنعها.

على كل حال فلم يزودنا خالي بالزهور اليانعة فحسب، وإنما أيضا بالخبز والفحم. واستطعت أن أتوقف عن نشاطي في الوساطة، الأمر الذي ساهم كثيرا في تماسك أخلاقياتي. لقد استقرت أحوال خالي فريد منذ فترة طويلة: فروعه مازالت مُزدهرة، يمتلك سيارة، وأنا وريثه المنتظر؛ لذلك كلفوني بأن أدرس الاقتصاد حتى أستطيع - قبل أن ينتقل الإرث لي - تقديم الاستشارة الضرائبية للشركة.

وعندما أراه اليوم، إنسانا ضخما يجلس خلف مقود سيارته الحمراء، أحس بغرابة شديدة أن شهيته للطعام كانت تسبب لي في وقت ما من حياتي أرقا وسهادا.

البطاقة البريدية

لا أحد من معارفي يدرك سر اهتمامي بالاحتفاظ بوريقة ليست لها أية قيمة سوى أنها تحيي ذكرى يوم محدد في حياتي، وهو ما جعل الناس يطلقون عليّ صفة "العاطفية"، وهو أمر لا يليق بمركزي: فأنا وكيل شركة نسيج. إلا أنني أدفع عن نفسي هذه التهمة وأحاول دائما أن أُضفي على الوريقة قيمة وثائقية.

هي قصاصة ضئيلة من الورق الرخيص، مستطيلة الشكل، ليست لها أبعاد طابع البريد - وإن كانت لها مساحته - فهي أطول منه وأقل عرضا، وبالرغم من صدورها عن هيئة البريد فليست لها أدنى قيمة لدى هواة جمع الطوابع. حواف القصاصة محاطة بخط صارخ الإحمرار، ويقسمها خط عرضي أحمر آخر إلى مستطيلين مختلفي الحجم، داخل المستطيل الصغير حرف Rباللون الأسود السميك، وفي الكبير - باللون الأسود أيضا - كلمة "دوسلدورف"، وبجانبها رقم ... وهو ٦٣٤ هذا هو كل شيء، والقصاصة لونها مصفر وتكاد تكون مهترئة. والآن، ولأنني وصفتها بكل دقة، فقد عزمت على أن أستهين بها وأقول: ورقة تسجيل عادية كالتي تُلصق كل يوم بالمئات في أي مكتب بريد.

ولكن هذه القصاصة تذكرني بيوم من أيام حياتي لا يمكن أن أنساه،

على الرغم من محاولات البعض المستمرة لمحوه من ذاكرتي، إلا أن ذاكرتي ما زالت تعيه جيدا.

عندما أفكر في ذلك اليوم فإنني أشم على الفور رائحة بودنغ الفانيليا: سحابة دافئة حلوة تتسلل من تحت باب حجرة نومي تذكرني بقلب أمي الطيب. كنت قد طلبت منها أن تعمل لي في أول أيام إجازتي آيس كريم بالفانيليا، وعندما استيقظت شممت الرائحة.

كانت العاشرة والنصف. أشعلت سيجارة ورفعت الوسادة، وأخذت أخطط كيف سأقضي فترة العصر. كنت أريد الذهاب للسباحة. بعد الأكل سأسافر إلى الشاطئ، أعوم بعض الوقت، أقرأ، أدخن، وأنتظر زميلة شابة وعدت بالمجيء إلى الشاطئ بعد الخامسة.

في المطبخ كانت أمي تدق اللحم، وحينما كانت تتوقف للحظات كنت أسمعها تدندن بشيء ما، ربما بترنيمة دينية. كنت أشعر بسعادة غامرة. قبل أيام اجتزت امتحان التلمذة الصناعية، في انتظاري وظيفة محترمة في مصنع نسيج، وظيفة لها مستقبل كبير .. أما الآن فأنا في إجازة. أربعة عشر يوما إجازة .. في الصيف. كان الجو خارج المنزل حارا، ولكنني كنت عندئذ مازلت أحب الجو الحار. عبر خصاص النافذة رأيت ما علمونا أن نسميه "بهاء الطبيعة": رأيت خضرة الأشجار أمام منزلنا، ثم ترامى إلى سمعي صوت الترام. كنت أنتظر الإفطار بسرور. جاءت أمي تسترق السمع من وراء باب حجرتي: جاءت عبر الممر وظلت واقفة أمام بابي، ثم ساد الصمت لحظة في شقتنا، عندئذ أردت أن أنادي أمي، ولكن جرس الباب رن في تلك اللحظة.

ذهبت أمي إلى الباب. كان لأزيز الجرس الواضح بالدور السفلي

وقعا غريبا على مسمعي. رن الجرس أربع، خمس، ست مرات. تحدثت أمي خارج الشقة مع السيدة كورتس جارتنا آنذاك. ثم سمعت صوت رجل، وعرفت على الفور أنه ساعي البريد، على الرغم أنني لم أسمع صوته إلا نادرا. جاء ساعي البريد إلى ممرنا .. وقالت والدتي: "نعم؟"، ورد ساعي البريد: "هنا .. وقعي من فضلك." وساد الصمت التام للحظة، ثم قال الساعي: "شكرا." وأغلقت أمي الباب خلفه، وسمعت وقع خطواتها وهي عائدة إلى المطبخ.

نهضت بعد برهة وذهبت إلى الحمام. حلقت ذقني واغتسلت طويلا وباعتناء، وعندما أغلقت الصنبور سمعت أمي وهي تهم بطحن البن. وكأننا في يوم الأحد، الاستثناء الوحيد أنني لم أذهب إلى الكنيسة.

لن يصدقني أحد، لكنني فجأة أحسست بقلبي ينقبض. لا أدري لذلك سببا، لكنه انقبض فجأة. لم أعد أسمع صوت طحن البن. نشفت بدني، وارتديت قميصا وبنطلونا وزوجا من الجوارب وحذاء. مشطت شعري وذهبت إلى غرفة المعيشة. على المائدة زهور: قرنفل وردي جميل. كانت المائدة معدة لتناول الطعام بطريقة لطيفة، وعلى طبقي علبة سجائر حمراء.

جاءت أمي من المطبخ حاملة إبريق القهوة. لاحظت على الفور أثر البكاء في عينيها. كانت تحمل براد القهوة في يد، وفي الأخرى مظروفا صغيرا، والاحمرار باد في عينيها. ذهبت إليها، وتناولت الإبريق منها، وقبلتها على خدها قائلا: "صباح الخير." فنظرت إلي وقالت: "صباح النور. هل نمت جيدا؟" وحاولت أن تبتسم وهي تقول ذلك، لكنها أخفقت.

جلسنا، وصبت أمي القهوة، وفتحت أنا العلبة الحمراء الموضوعة على طبقي، وأشعلت سيجارة. زالت عني شهيتي فجأة. أخذت أقلب

الحليب والسكر في القهوة محاولا النظر إلى أمي، ولكنني كنت سريعا ما أخفض البصر. وسألتها: "هل جاءت خطابات؟"، على الرغم أنه كان سؤالا سخيفا، فقد كانت يد أمي الصغيرة المتوردة تستند على المظروف الصغير الذي كانت الجريدة تغطي أعلاه، وأجابت: "نعم." وأزاحت المظروف تجاهي. فتحتُ الجريدة، وبدأت أمي في إعداد السندوتشات لي. كان عنوان الجريدة الرئيسي في الصفحة الأولى هو: "الألمان يتعرضون للاضطهاد على الحدود". كانت العناوين الرئيسية للصفحات الأولى في الصحف تدور منذ أسابيع حول هذه الموضوعات، بالإضافة إلى تقارير حول "تفجر الاضطرابات على الحدود البولندية، وعن الهاربين الذين يتركون مناطق الحدود البولندية ويفرون إلى الرايخ". نحيت الجريدة، ثم قرأت إعلان الدعاية لإحدى شركات النبيذ التي كنا نشتري منها في بعض الأحيان عندما كان والدي حيا. كان النبيذ من نوع الريزلينغ معروضا بثمن بخس. ونحيت الإعلان أيضا.

كانت أمي قد انتهت من إعداد السندوتشات، ووضعتها على طبقي قائلة: "كل شيئا." ثم انفجرت في نحيب شديد. لم أقو على النظر إليها. لا أستطيع رؤية إنسان يعاني معاناة حقيقية، ولم أدرك إلا عندئذ أن سبب ذلك لابد وأن يكون له علاقة بالبريد الذي جاءنا اليوم. لابد أنه البريد. وأطفأت السيجارة داهسا إياها بإصبعي، وأخذت قضمة من السندوتش، وتناولت الخطاب المجاور لي، وعندما رفعته لاحظت أن هناك بطاقة بريد أسفله. لم أر إشعار التسجيل هذا - هذه القصاصة الصغيرة التي مازلت أحتفظ بها إلى اليوم، والتي جعلتني مشهورا بالعاطفية. وهكذا قرأت الخطاب أولا.

كان من الخال إدي. كتب خالي أنه بعد عشر سنوات طويلة من عمله مساعد مدرس أصبح أخيرا مدرسا في المرحلة الثانوية. كان لابد أن ينتقل إلى عش صغير. لم يكد يطرأ عليه أي تحسن مالي، إذ أنه اندس الآن بين أكثر الطبقات المحلية بؤسا، وأُصيب أطفاله بالسعال الديكي .. أما هو- يقول في خطابه - فقد سئم كل شيء، ونحن نعلم لماذا. نعم، نحن نعلم لماذا، لقد سئمنا نحن أيضا، كثيرون سئموا.

حينما أردت أخذ البطاقة البريدية لم أجدها. أخذتها أمي ورفعتها أمام عينيها ... وأخذت أحملق في شريحة الخبز المقضومة، أقلب فنجان قهوتي، وأنتظر. لا أنسى ذلك. أمي لم تبك بمثل هذه الحرقة إلا مرة واحدة: عندما توفي أبي .. ولم أقو آنذاك أيضا على النظر إليها. لقد منعني الخجل - لا أعرف لذلك اسما آخر - من أن أواسيها.

حاولت أن أقضم شريحة الخبز لكنني أحسست بغصة في حلقي، إذ أدركت فجأة أن ما جعل الأم تخرج عن شعورها إلى هذا الحد لابد أن يكون شيئا ذا صلة بي. وغمغمت أمي بشيء لم أفهمه، وأعطتني البطاقة .. عندئذ رأيت ورقة التسجيل: هذا المستطيل الأحمر الحواف، الذي قسمه خط عرضي أحمر إلى مستطيلين آخرين، داخل المستطيل الصغير حرف Rباللون الأسود السميك، وفي الكبير كلمة "دوسلدورف"، والرقم ٦٣٤ . فيما عدا ذلك كانت البطاقة عادية تماما، معنونة باسمي، وعلى الظهر كان مكتوبا:

"السيد/ برونو شنايدر: عليكم الحضور يوم ١٩٣٩/٨/٥ إلى معسكر شليفن بمنطقة أدنبروك، وذلك لتلقي تدريبات تستغرق ثمانية أسابيع."

كانت الكلمات "برونو شنايدر"، والتاريخ و "أدنبروك" مكتوبة بالآلة الكاتبة، أما بقية الكلمات فكانت مطبوعة. أسفل الكارت شخبطة ما، ثم كلمة "الرائد" مطبوعة.

واليوم أعرف أن هذه الشخبطة لم تكن ذات أهمية، فهناك ماكينة تقوم بالمهمة نفسها. لم يكن مهما إلا القصاصة الملصوقة والتي من أجلها كان على أمي أن توقع إيصالا.

وضعت يدي على ذراع أمي قائلا: "يا إلهي .. لمدة ثمانية أسابيع فقط." وجاوبتني أمي: "نعم .. نعم." قلت: "ثمانية أسابيع فقط."، وكنت أعلم أنني أكذب، وجففت أمي دموعها وقالت: "نعم .. بالطبع." وتبادلنا الكذب دون أن ندري لماذا نكذب، ولكننا كنا نكذب، ونعرف أننا نكذب.

أمسكت شريحة الخبز مرة أخرى، عندئذ خطر ببالي أن اليوم هو الرابع في الشهر، وأنني سأكون غدا في الساعة العاشرة على بعد ثلاثمائة كيلو مترا تجاه الشرق. أحسست بامتقاع في الوجه، ووضعت الخبز ثانية، ونهضت دون أن أبالي بأمي. ذهبت إلى حجرتي، ووقفت بجانب مكتبي، وسحبت الدرج .. ثم أرجعته مرة أخرى. أجلت بصري في الغرفة، شعرت أن شيئا ما قد حدث، ولم أعرف ما هو. لم تعد الحجرة حجرتي، هكذا كان إحساسي باختصار. اليوم أفهم ذلك، لكنني آنذاك كنت أفعل أشياء لا معنى لها لأؤكد لنفسي ملكيتي للحجرة. كنت أنقب باحثا في صندوق الكرتون الذي أحفظ فيه الخطابات، وأرتب كتبي دون أن أبغي أية فائدة من وراء ذلك. وقبل أن أدرك ما الذي أفعله بدأت أحشو حقيبتي بقميص ولباس ومنديل وجوارب. ثم ذهبت

إلى الحمام لأحضر أدوات الحلاقة. ما زالت أمي جالسة على مائدة الإفطار. لم تعد تبكي. مازالت قطعة الخبز المقضومة هناك .. والقهوة في فنجاني. قلت لأمي: "سأذهب إلى آل غيسلباخ لاستفسر تليفونيا عن موعد سفري."

حينما عدت من عند آل غيسلباخ كانت الساعة تدق الثانية عشرة ظهرا. رائحة الشواء والقرنبيط تعبق صالتنا. كانت أمي تهم بتكسير قطع الثلج في داخل كيس لتحشوه في ماكينة الآيس كريم الصغيرة.

ينطلق قطاري في تمام الثامنة مساء، ونحو السادسة صباحا سأكون في أدنبروك. ومع أن الطريق إلى المحطة لا يستغرق سوى ربع ساعة فقد خرجت من المنزل في الساعة الثالثة. كذبت على أمي التي لا تعرف الوقت الذي تستغرقه الرحلة إلى أدنبروك.

والثلاث ساعات هذه - التي قضيتها في المنزل - هن في ذاكرتي أسوأ وأطول من كل الوقت الذي قضيته خارج المنزل فيما بعد، وقد كان وقتا طويلا. لا أدري ماذا فعلنا. لم نجد للطعام طعما. أرجعت أمي بعد قليل اللحم المشوي والقرنبيط والبطاطس وآيس كريم الفانيليا إلى المطبخ. ثم شربنا القهوة المتبقية من الإفطار والتي حفظتها أمي دافئة تحت غطاء من القماش الأصفر. دخنت عدة سجائر .. ومن وقت لآخر كنا نتبادل بضع كلمات: كنت أقول: "ثمانية أسابيع"، وترد أمي: "نعم .. نعم .. بالطبع" لم تعد تبكي. طيلة ثلاث ساعات ونحن نتبادل الكذب حتى لم أعد أحتمل. باركتني الأم وقبلتني على خدي. وعندما أغلقتُ الباب خلفي عرفت أنها تبكي.

ذهبت إلى المحطة. كانت الحركة على أشدها هناك. كنا في وقت

الإجازات: أناس سعداء يعلو بشرتهم اللون البرنزي يسيرون هنا وهناك. احتسيت كأس بيرة في صالة الانتظار، ثم قررت نحو الثالثة والنصف أن أتصل بزميلتي الشابة التي كنت أنوي مقابلتها على الشاطئ.

بينما كنت أدير الرقم، وكان القرص النيكلي المثقب يعود لخامس مرة إلى مكانه، كدت أندم على الاتصال، لكنني أدرت الرقم السادس أيضا، وعندما سمعت صوتها يسأل: "مَن يتحدث؟" سكت في البداية لحظة .. ثم أجبت ببطء: "برونو .. هل تستطيعين المجيء؟ لابد أن أرحل .. إلى الجيش."

- في الحال؟

- نعم.

أخذت تفكر برهة، وسمعت في التليفون أصوات الآخرين. كان من الواضح أنهم يجمعون نقودا ليحضروا آيس كريم.

- اتفقنا، سآتي .. إلى المحطة؟

- نعم.

أتت بسرعة البرق إلى المحطة، ولا أدري إلى اليوم، بالرغم من أنها قد أصبحت زوجتي منذ عشر سنوات، لا أدري حتى اليوم إذا كان من المفروض أن أندم على هذه المحادثة التليفونية. لقد حافظت لي على وظيفتي في الشركة .. أحيت طموحي الميت بعد رجوعي إلى الوطن .. وفي الحقيقة فإليها يرجع الفضل في تحويل المستقبل الكبير - الذي كانت تبشر به الوظيفة - إلى واقع حي.

ولكنني لم أقض حتى معها الوقت الذي كان من الممكن أن أقضيه. ذهبنا إلى السينما، وفي صالة السنيما تلك، الشديدة الحرارة والمظلمة، قبلتها على الرغم من قلة رغبتي في ذلك.

قبلتها كثيرا .. وفي تمام السادسة ذهبت إلى رصيف المحطة رغم أن الوقت كان أمامي حتى الثامنة. وعلى رصيف المحطة قبلتها مرة أخرى، ثم قفزت في قطار ما سافر جهة الشرق. منذ ذلك الحين لم أعد أستطيع رؤية الشواطئ بدون أن أشعر بالألم: الشمس، الماء، ومرح الناس؛ كل هذا يبدو لي في غير موضعه. أفضل على ذلك التسكع في المدينة وحيدا في الجو المطير .. أذهب إلى السينما حيث لم يعد علي أن أقبل أحدا.

مازال المستقبل أمامي في الشركة كبيرا. من الممكن أن أصبح مديرا. بل ومن المحتمل أن يحدث ذلك وفقا لعبثية قانون الكسل. فهم مقتنعون بأنني أشعر بالانتماء للشركة، وأنني سأفعل شيئا من أجلها. ولكنني لست منتميا لها، ولا أفكر في فعل شيء من أجلها ..

وكثيرا ما أنظر إلى قصاصة التسجيل هذه بتأمل عميق .. هذه القصاصة التي تمثل منعطفا فجائيا في حياتي. وعندما يُعقد امتحان التلمذة الصناعية في الصيف، ويأتي إلي الناجحون لأهنئهم، أجد من واجبي أن ألقي عليهم كلمة قصيرة تلعب فيها كلمة "مستقبل كبير" دورا تقليديا.

ميزان آل باليك

في بلدة جدي كان معظم الناس يرتزقون من العمل في مصنع الكتان. منذ خمسة أجيال وهم يستنشقون الغبار المتصاعد من سيقان الكتان المكسورة، مستسلمين بذلك للانتحار البطيء. كانوا صابرين بشوشين، يأكلون جبن الماعز والبطاطس، بين الحين والآخر يذبحون أرنبا؛ وفي المساء يغزلون ويشتغلون بالإبرة في الدار، ويغنون، ويشربون النعناع. كانوا سعداء. أثناء النهار يكسرون سيقان الكتان في ماكينات عتيقة، لا حول لهم ولا قوة أمام الغبار والحرارة المنبعثة من أفران التجفيف. لم يكن في دارهم إلا سرير وحيد في تجويف مخصوص بالجدار، لا ينام عليه سوى الأب والأم، أما الأطفال فكانوا يفترشون الدكك حول السرير. في الصباح تتشبع الدار برائحة حساء لا يقيم الأود، أما في أيام الآحاد فكانوا يأكلون الفطير. في أيام الأعياد تتورد وجوه الأطفال فرحةً عندما تتخلى القهوة الرخيصة المصنوعة من ثمار شجر البلوط عن قتامتها شيئا فشيئا بفعل الحليب الذي كانت تصبه الأم باسمة في وعاء القهوة.

في الصباح الباكر يذهب الآباء إلى المصنع تاركين العمل المنزلي للأطفال: يكنسون الغرف، ويرتبونها، ويغسلون الأطباق، ويقشرون

البطاطس ـ تلك الحبات الصفراء الثمينة التي كان عليهم أن يُظهروا لآبائهم قشرتها الرقيقة حتى ينفوا عن أنفسهم أي مظنة تبذير أو استهتار.

بمجرد عودة الأطفال من المدرسة كان عليهم أن يذهبوا إلى الغابة لكي يجمعوا، وفقا للموسم، عيش الغراب أو الأعشاب الطبيعية: الجويسئة العطرية، والزعتر، والكراويا، والنعناع، وأيضا القمعية الأرجوانية؛ وفي الصيف ـ بعد حش الحشائش من المراعي الجدباء ـ كانوا يقومون بجمع الزهور البرية. كانوا يحصلون على بفنك عن كل كيلو من زهور الحشائش، التي تُباع بعد ذلك في صيدليات المدينة للسيدات ضعيفي الأعصاب مقابل عشرين بفنكاً للكيلو. عيش الغراب هو الذي كان ثمينا، عن الكيلو الواحد كانوا يحصلون على عشرين بفنكاً، أما في محلات المدينة فيبلغ سعر الكيلو ماركاً وعشرين بفنكاً. في الخريف، عندما تدفع الرطوبة عيش الغراب من جوف الأرض، كان الأطفال ينتشرون زاحفين في أعماق ظلمات الغابة الخضراء، حيث لكل عائلة تقريباً أماكن خاصة لجمع عيش الغراب يبوح بها كل جيل همساً للجيل التالي.

كانت الغابات ملكاً لآل باليك، وكذلك مصنع الكتان. كانوا يعيشون في قصر بقرية جدي، وهناك، بجوار الحجرة التي يشترون فيها الحليب من الفلاحين، كانت لزوجة كبير العائلة غرفة صغيرة يقومون فيها بوزن وشراء عيش الغراب والأعشاب وزهور الحشائش. في تلك الغرفة استقر ميزان آل باليك على المائدة: ميزان عتيق منمق ومزخرف بالبرونز المطلي بالذهب، وأمامه وقف أجداد جدي وهم أطفال، وفي أيديهم الصغيرة المتسخة سلال يملؤها عيش الغراب وأجولة ورقية بها زهور

حشائش، ينظرون في ترقب إلى الأكيال التي تضعها السيدة باليك على الكفة حتى يقف المؤشر المتأرجح على الخط الأسود تماماً ـ خط العدالة الرفيع الذي يُعاد طلاؤه في كل عام . بعد ذلك تتناول السيدة باليك الدفتر الضخم المبطن بجلد بني وتسجل الوزن، وتدفع الثمن في صورة عملات معدنية من فئة البفنك أو الغروشة؛ ونادراً، نادراً للغاية ما تدفع ماركاً كاملاً . عندما كان جدي طفلاً، كان هنالك برطمان زجاجي كبير به بونبون مُز، يبلغ ثمن الكيلو منه ماركا، فإذا كانت السيدة باليك ـ الآمرة الناهية في الغرفة الصغيرة ـ منشرحة الأسارير، فإنها تُدخِل يدها في البرطمان وتعطي بونبونة لكل طفل؛ وتتورد وجوه الأطفال فرحةً، كما تتورد في أيام الأعياد عندما تصب الأم الحليب في وعاء القهوة، وتتخلى القهوة شيئاً فشيئاً عن قتامتها حتى تصبح في لون ضفائر البنات الشقراوات.

من القوانين التي فرضها آل باليك على القرية قانون يمنع اقتناء الموازين في المنازل. لقد صدر هذا القانون منذ أمد موغل في القدم حتى أنه لم يعد هناك أحد يتساءل متى ولماذا سُن هذا القانون. ولكن كان على الجميع احترام ذلك القانون؛ فمَن خالفه طُرد من مصنع الكتان ولم يجد من يأخذ منه عيش الغراب أو الزعتر أو زهور الحشائش، بل لقد بلغت سطوة آل باليك حداً جعل من المستحيل أن يجرؤ أحد حتى من القرى المجاورة أن يمنح ذلك المخالف للقانون فرصة عمل أو يشتري منه الأعشاب. ولكن منذ أن بدأ أجداد جدي وهم أطفال صغار يجمعون عيش الغراب ويبيعونه ـ حتى تكتسب المشويات والعجائن في مطابخ أثرياء مدينة براغ نكهة محببة ـ لم يُفكر أحد في التعدي على هذا

القانون. هناك المكاييل للدقيق، والبيض من الممكن عده، والمنسوجات تُقاس بالأذرع، أما في الأشياء الأخرى فإن ميزان آل باليك العتيق المزخرف بالبرونز المطلي بالذهب كان يوحي بالدقة، لذا وضعت خمسة أجيال ثقتها في المؤشر الأسود المتأرجح لوزن ما جمعوه في الغابة بحماس طفولي.

كان من بين هؤلاء الناس الهادئين من يحتقر القانون بالطبع، كصائدي الحيوانات البرية في غابات آل باليك بدون تصريح، الذين كانوا يشتهون أن يكسبوا في ليلة أكثر مما يستطيعون أن يكسبوا الشهر كله في مصنع الكتان. ولكن حتى بين هؤلاء لم يبدو أن أحدا قد راودته فكرة أن يشتري أو يصنع ميزانا. جدي كان أول من تجرأ ووضع عدالة آل باليك تحت الاختبار: آل باليك الذين يسكنون القصور، ويمتلكون عربتين تجرهما الخيل، ويتبرعون دائماً لأحد أبناء القرية بمصاريف الدراسة في كلية اللاهوت بجامعة براغ، ويستضيفون القس كل أربعاء ليلعب الكوتشينة معهم؛ آل باليك الذين سيزورهم مأمور المركز في مستهل العام الجديد بعربته المزينة بشعار القيصر، والذين سينعم عليهم القيصر في مستهل عام ١٩٠٠ بلقب "النبيل".

تميز جدي بالاجتهاد والذكاء، فكان يزحف في الغابة إلى أبعد مما كان أطفال قبيلته يفعلون. لقد تغلغل حتى وصل إلى الأدغال التي يسكنها - كما تقول الأساطير - العملاق بيلغان الذي يحرس الكنز المخبأ هناك. ولكن جدي لم يكن يخشى العملاق بيلغان، فكان يتسلل - منذ كان صبياً - إلى أعماق الأدغال ويأتي بغنيمة عظيمة من عيش الغراب، بل إنه وجد ذات مرة أنواعاً غالية منه، كالكمأ الذي ينمو تحت الأرض،

دفعت السيدة باليك ثلاثين بفنكاً لكل كيلو منه. كان جدي يسجل كل ما يبيعه لآل باليك على ظهر ورقة من أوراق تقويم السنة: كل رطل من عيش الغراب وكل جرام من الزعتر، وبخطه الطفولي كتب على الهامش الأيمن مقدار ما حصل عليه مقابل ذلك: لقد سجل على هذه الورقة كل بفنك حصل عليه منذ بلغ الخامسة وحتى الثانية عشرة من عمره، أي حتى عام ١٩٠٠ . في ذلك العام أهدى آل باليك كل عائلة في القرية ربع رطل من البن الحقيقي البرازيلي الغالي، وذلك احتفالاً بإنعام القيصر عليهم بلقب "النبيل"، وقُدمت أيضاً البيرة المجانية والتبغ للرجال، وفي القصر أُقيم احتفال كبير، وازدحم الطريق العريض الذي تحف به أشجار الحور، والمؤدي من البوابة إلى القصر، بالعربات التي تجرها الخيل.

قبل الاحتفال بيوم كانوا قد وزعوا البن في الغرفة الصغيرة حيث يتربع منذ نحو مائة عام ميزان آل باليك، الذين يُسَمون الآن باليك فون بيلغان؛ لأن العملاق بيلغان - كما تروي الأسطورة - كان يقبع في قصره الكبير في المكان الذي بنى فيه آل باليك مقرهم الحالي.

كثيرا ما حكى جدي لي عن ذهابه بعد المدرسة إلى القصر ليُحضر البُن لأربع عائلات: آل سيش، وآل فايدلير، وآل فولا، وعائلته هو: آل بروشر. كثُر العمل في عصر آخر أيام العام، ما بين تزيين الغرف، وخبز الكعك، لذلك لم تكن العائلات تريد أن تستغني عن أربعة صبيان وإرسالهم فرادى إلى القصر حتى يُحضر كل منهم ربع رطل من البُن. وهكذا جلس جدي في حجرة الميزان على الدكة الخشبية الصغيرة، والخادمة غرترود تحصي أمامه أربعة أكياس بداخل كل منها ثمُن كيلو من البن، مسددا نظراته على الميزان الذي استقر على كفته اليسرى حجر

وزنه نصف كيلو. كانت السيدة باليك مشغولة بالتحضير للعيد، وعندما أرادت غرترود أن تمد يدها في برطمان البونبون المُز لتعطي جدي واحدة، اكتشفت أنه فارغ. مرة كل عام كانوا يملأون البرطمان عن آخره بكيلو من هذا البونبون الذي يبلغ سعره ماركاً. ضحكت غرترود قائلة: "انتظر، سأملأ البرطمان." وظل جدي واقفاً أمام الميزان، ومعه أكياس البن الأربعة التي يزن كل منها ثُمن كيلو، والتي وزنت وغُلِفت بالمصنع. رأى جدي على إحدى كفتي الميزان الحجر الذي يزن نصف كيلو، فأخذ أكياس البُن ووضعها على كفة الميزان الفارغة، وخفق قلبه بقوة حينما رأى مؤشر العدالة الأسود يبقى معلقا إلى يسار الخط، وأن الكفة التي تحوي الأثقال ظلت هابطة في مكانها، وأن نصف كيلو البن يسمو بهامته في الهواء؛ وخفق قلبه خفقانا أشد مما لو كان قد رقد في الغابة منتظراً العملاق بيلغان وراء شجيرة، وبحث جدي في جيبه عن حصوات الزلط التي يحملها معه دائما لقذفها بالنبلة لاصطياد العصافير التي تنقر أوراق الكرنب الذي تزرعه أمه - ووضع ثلاث .. أربع .. خمس حصوات من الزلط بجانب أكياس البن حتى نهضت الكفة الأخرى و معها الحجر الذي يزن نصف كيلو، واستقر المؤشر أخيرا على الخط الأسود تماما. وتناول جدي أكياس البن من الميزان، ولف حصوات الزلط في منديله؛ وعندما عادت غرترود بالكيس الكبير الذي يحتوي على كيلو من البونبون المُز، الذي سيكفي لمدة عام، والذي سيجعل وجوه الأطفال تتورد فرحة ـ عندما أفرغت غرترود البونبون في البرطمان الزجاجي محدثة صلصلة، كان الصبي الصغير الشاحب الوجه يقف في مكانه وكأن شيئا لم يكن. لم يأخذ جدي سوى ثلاثة أكياس بن، ونظرت

غرترود في دهشة وذعر إلى الصبي الشاحب الوجه الذي ألقى بقطعة البونبون على الأرض، ثم داسها صارخا:

ـ أريد التحدث مع السيدة باليك.

فردت غرترود:

ـ السيدة باليك فون بيلغان من فضلك.

ـ طيب، السيدة باليك فون بيلغان.

إلا أن غرترود سخرت منه. رجع الصبي في الظلام إلى القرية، وأعطى كيس بن لكل من عائلة سيش وعائلة فايدلير وعائلة فولا، ثم ادعى إنه لابد أن يذهب إلى القس.

ولكنه انطلق في أعماق الليل ومعه حصوات الزلط الخمس ملفوفين في منديله. مشى طويلا حتى وجد شخصا يمتلك ميزانا، أو بالأحرى سُمح له بامتلاك ميزان؛ كان يعلم أنه لم يكن هناك ميزان في قرية بلاوغاو أو برناو، فاخترق القريتين حتى وصل بعد مسيرة ساعتين إلى المدينة الصغيرة ديلهايم حيث يسكن الصيدلي هونيش. تصاعدت من المنزل روائح فطير ساخن، وفاحت من فم هونيش ـ عندما فتح الباب للصبي الذي كاد يتجمد بردا ـ رائحة النبيذ الساخن، وبين شفتيه النحيفتين لاح السيجار المبلل. أمسك الصيدلي بيدي الصبي الباردتين لحظة، ثم سأله:

ـ هه، هل ساءت حالة رئة أبيك؟

ـ لا، أنا لم أحضر من أجل أدوية ... كنت أريد ...

وفتح جدي منديله مخرجا الحصوات الخمس، ومد يده بهم إلى هونيش قائلا:

ـ كنت أريد أن أعرف كم يبلغ وزن هذه الأشياء.

وتطلع خائفا إلى وجه هونيش، وعندما لم يقل الأخير شيئا، ولم يغضب، وأيضا لم يوجه إليه أي سؤال، قال جدي: "هذا ما ينقص العدالة." لم يشعر جدي إلا حينئذ ـ عندما دخل الغرفة الدافئة ـ أن الماء قد تسلل إلى قدميه. لقد نفذ الثلج من خلال الحذاء رديء الصنع، وأخذ الثلج الذي تساقط عليه من فوق غصون الأشجار في الغابة في الذوبان. كان منهكا جائعا، ثم شرع فجأة في البكاء لأنه تذكر عيش الغراب الكثير والأعشاب والزهور التي وُزنت على الميزان ـ ذلك الميزان الذي تنقص عدالته بمقدار وزن خمس حصوات. وعندما نادى هونيش امرأته وهو يهز رأسه ماسكا بالحصوات في يده، فكر جدي في آباء آبائه وأجداده، الذين أُجبروا كلهم على وزن عيش الغراب والزهور على ذلك الميزان، وشعر بوطأة ظلم هائل، وبدأ نحيبه يشتد، فجلس ـ دون أن يأذن له أحد بذلك ـ على أحد الكراسي في غرفة هونيش؛ ولم يلتفت إلى الفطائر أو إلى فنجان القهوة الساخنة الذي وضعته السيدة هونيش الطيبة البدينة أمامه، ولم يتوقف عن البكاء حتى عاد هونيش نفسه من الصيدلية قائلا لزوجته وهو يهز الحصوات في يده:

ـ ٥٥ جراما بالضبط.

وسار جدي عبر الغابة لمدة ساعتين، تركهم يضربونه في المنزل، صمت عندما سُئل عن البن الذي لم يحضره، لم ينطق بكلمة، وأخذ يحسب طيلة المساء على ورقته ـ التي سجل عليها كل شيء ـ ما الذي ورّده للسيدة باليك فون بيلغان حتى الآن؛ وعندما دقت الساعة معلنة انتصاف الليل، وسُمعت فرقعة الصواريخ النارية من ناحية القصر،

وتعالت في جميع أنحاء القرية صيحات الابتهاج وخشخشة الصلاصل، وعندما تبادل أفراد الأسرة القبلات والأحضان كسر جدي صمت العام القادم قائلا:

ـ آل باليك يدينون لي بمبلغ قدره ثمانية عشر ماركا واثنين وثلاثين بفنكا.

ثم تذكر ثانية عدد الأطفال الغفير في القرية، وأخيه فريتس الذي جمع كمية كبيرة من عيش الغراب، وأخته لودميلا، تذكر مئات الأطفال الذين جمعوا كلهم عيش الغراب والأعشاب والزهور وباعوها لآل باليك، ولم يبك هذه المرة، وإنما حكى لأبويه واخوته عن اكتشافه.

عندما دخل آل باليك فون بيلغان الكنيسة لحضور القداس الاحتفالي في أول أيام السنة، والشعار الجديد ـ عملاق قابع تحت شجرة شربين ـ يزين عربتهم بلونيه الأزرق والذهبي، أرسلوا النظر إلى وجوه الحاضرين الجامدة الشاحبة المحملقة فيهم. لقد توقعوا أن يروا شوارع القرية مزينة بالزهور، وأن يسمعوا في الصباح الموسيقى تُعزف إكراما لهم، وأن تتعالى صيحات التهليل والفرح ـ ولكن القرية بدت وكأنها خلت من أهلها عندما انطلقت بهم العربة في طرقها. وفي الكنيسة التفتت إليهم وجوه الحاضرين التي علاها الشحوب والصمت والتحفز، وعندما اعتلى القس المنبر ليلقي عظة الاحتفال أحس ببرودة الوجوه التي كانت تشع هدوءا وسلاما فيما مضى. ألقى عظته المفككة بجهد جهيد، ثم رجع إلى الهيكل وهو يتصبب عرقا. ولما غادر آل باليك فون بيلغان الكنيسة بعد انتهاء القداس، أخذوا طريقهم بين وجوه أهل القرية الصامتة الشاحبة المصطفة على الجانبين. لكن السيدة آل باليك الصغيرة

ظلت واقفة عند دكك الأطفال في الأمام باحثة عن وجه جدي ـ فرانتس بروشر ـ الشاحب الصغير، وسألته في الكنيسة:

ـ لماذا لم تأخذ البن معك إلى أمك؟

فوقف جدي مجيبا:

ـ لأنك لا تزالين مدينة لي بما يساوي ثَمن خمسة كيلو من البن.

وأخرج من جيبه الحصوات الخمس ومد بها يده إلى السيدة الصغيرة وقال:

ـ هذا ما ينقص عدالتك، ٥٥ جرام في كل نصف كيلو.

وقبل أن تستطيع السيدة أن تقول شيئا، أخذ الرجال والنساء في الكنيسة ينشدون ترنيمة: "عدالة الأرض يا ربنا حكمت عليك بالموت"[١٣].

وبينما كان آل باليك في الكنيسة، تسلل فيلهلم فولا ـ صائد الحيوانات البرية ـ إلى الغرفة الصغيرة الموجود بها الميزان وسرقه، ومعه الدفتر الضخم المبطن بالجلد الذي سُجل فيه كل كيلو من عيش غراب، وكل كيلو من زهور الحشائش، وكل ما اشتراه آل باليك من أهل القرية. وطوال عصر أول أيام العام الجديد جلس رجال القرية في دار أجدادي وأخذوا يحسبون عُشر ما تم شراؤه من كل شيء، وفيما هم يحسبون، وقبل أن يفرغوا من جمع كل المبالغ التي وصلت حتى تلك اللحظة آلاف الماركات، هجم رجال الشرطة – الذين أرسلهم مأمور القسم – مقتحمين دار أجدادي وهم يطلقون رصاص بنادقهم ويطعنون بخناجرهم، ثم انتزعوا عنوة الميزان والدفتر. أثناء ذلك قتلوا أخت جدي الصغيرة ـ لودميلا ـ وجرحوا بعض الرجال، وقتلَ الصياد فيلهلم فولا أحدَ رجال الشرطة بطعنة نافذة.

انتشر التمرد، ليس فقط في قريتنا وإنما أيضا في بلاوغاو و برناو، ولمدة أسبوع تقريبا توقف العمل تماما في مصانع الكتان. وازدحمت القرية برجال الشرطة الذين هددوا الرجال والنساء بالسجن، وأجبرَ آل باليك القس أن يقوم بعرض الميزان في المدرسة أمام الجميع، وأن يبرهن على دقة مؤشر العدالة. وعاود الرجال والنساء عملهم في كسر سيقان الكتان، ولكن لم يذهب أحد إلى المدرسة لمشاهدة القس: وقف هناك وحيدا تماما، شاعرا بالعجز والحزن، ومعه المكاييل الحجرية والميزان وأكياس البن.

وعاد الأطفال يجمعون عيش الغراب، ويجمعون الزعتر والقمعية الأرجوانيـة والزهور. ولكن كل يوم أحد كان أهل القرية يرنمون في الكنيسة بمجرد دخول آل باليك: "عدالة الأرض يا ربنا حكمت عليك بالموت"، حتى أمر مأمور المركز أن تُقرع الطبول في كل القرى معلنة منع إنشاد هذه الترنيمة.

كان على عائلة جدي أن تفارق القرية، وقبر ابنتهم الصغيرة التي واروها في التراب بالأمس القريب. كسبوا قوتهم عن طريق جدل سلال الخيزران، ولم يطيلوا البقاء في مكان ما، لأنه كان يؤلمهم رؤية مؤشر العدالة الظالم في كل مكان. تنقلوا من قرية إلى قرية وراء عربتهم التي كانت تزحف بطيئة على الطريق الزراعي، مصطحبين عنزتهم النحيفة. ومَن كان يمر بالعربة كان بإمكانه أن يسمعهم أحيانا وهم يغنون في الداخل: "عدالة الأرض يا ربنا حكمت عليك بالموت". ومن كانت لديه الرغبة في الاستماع، كان يستمع إلى حكاية آل باليك فون بيلغان الذين نقصت عدالتهم بمقدار العُشر. ولكنهم ما كانوا يجدون أحدا يستمع إليهم إلا نادرا.

وكان مساء .. وكان صباح

لم يخطر على باله أن يترك هدايا عيد الميلاد التي اشتراها لزوجته آنّه في أمانات المحطة إلا مع انتصاف النهار. كان سعيدا بهذه الفكرة لأنها أعفته من العودة إلى المنزل مباشرة. إنه يخشى العودة إلى المنزل منذ أصبحت آنّه لا تتبادل معه الحديث. فبمجرد أن تطأ قدماه الشقة يتدحرج صمتها على قلبه كحجر قبر. كان فيما مضى - ولمدة عامين منذ يوم الزفاف - يتشوق إلى المنزل: كان يحب تناول الطعام مع آنّه، حديثه معها، ثم الذهاب إلى الفراش؛ ولكن أكثر ما كان يحبه هي تلك الساعة التي تفصل بين الذهاب إلى الفراش والاستغراق في النوم. كانت آنّه تستغرق في النوم قبله، لأنها كانت آنذاك دائما متعبة، أما هو فكان يرقد بجانبها في الظلام، يسمع صوت تنفسها، ويشاهد الأضواء التي تطلقها في بعض الأحيان كشافات السيارات من أقصى الشارع على سقف الحجرة: حزم ضوئية صفراء ساطعة تعكس على الحائط لبرهة بروفيل زوجته النائمة، ثم تغرق الحجرة في الظلام من جديد عندما تبلغ السيارات نهاية الشارع، ولا يتبقى إلا تلك الدوائر الرقيقة التي يرسمها ضوء المصباح الغازي في الشارع لنقوش الستائر على سقف الحجرة. كان يحب هذه الساعة أكثر من أية ساعة أخرى أثناء نومه، لأنه كان يشعر

بالنوم وهو يتسلل من بين يديه، ويشعر بنفسه وهو يغوص في النوم كأنما يغوص في الماء.

أخذ يسير الهوينى أمام شباك الأمانات وقد تملكه التردد، رأى خلفه صندوق الكرتون الخاص به، لا يزال بين الحقيبة الجلدية الحمراء والدّن. هبط المصعد المفتوح خاليا، وقد ابيض لونه بفعل الثلج، وكأنه ورقة بيضاء بين الأسمنت الرمادي لحجرة الأمانات. اتجه الرجل الذي يعمل على المصعد إلى الأمام، وقال للموظف: "إنها الآن أجواء عيد الميلاد بحق. أليس جميلا أن يلهو الأطفال بالثلج؟" وأومأ الموظف، وأخذ ينظف أظافره بقصاصة ورقية، ويحصي النقود في درجه الخشبي مرسلا نظرات ارتياب إلى برنيش الذي أخرج إيصال الأمانات من جيبه، ثم طواه مرة أخرى وأعاده حيث كان. لقد أتى إلى الشباك ثلاث مرات من قبل، أخرج إيصال الأمانات ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يعيده. ضايقته نظرات الموظف المرتابة. مشى متمهلا إلى بوابة الخروج وظل واقفا هناك يرسل النظر إلى الساحة الخالية. كان يحب الثلج، يحب البرودة، وطالما انتشي وهو فتي باستنشاق الهواء البارد النقي. ألقى سيجارته وعرض وجهه للريح التي كانت تهب على المحطة حاملة ندف ثلج رقيقة وكثيفة. ظل برنيش فاتحا عينيه. إنه يحب تعلق ندف الثلج بأهدابه. دائما نُدف جديدة، بينما تسيل القديمة مكونة قطرات رقيقة تهبط على وجنتيه. مرت أمامه فتاة مسرعة، رآها وهي تعبر الساحة متعجلة وقد غطى الثلج قبعتها الخضراء، ولكنه لم يلاحظ الحقيبة الجلدية الحمراء في يدها ـ تلك التي كانت بجوار صندوقه في حجرة الأمانات ـ إلا عندما وقفت على محطة الترام.

أخذ برنيش يتحدث إلى نفسه: على الإنسان ألا يتزوج؛ إنهم يهنئون المتزوج، ويرسلون إليه زهورا، ويبعثون إلى منزله ببرقيات سخيفة، ثم يتركونه وحيدا. يسألونه إذا كان قد فكر في كل شيء: في أدوات المطبخ ابتداء من المملحة وحتى الموقد الغازي، ثم يطمئنون أيضا على زجاجة التوابل في رف المطبخ، ويحسبون ويراجعون الحساب إذا كان في مقدورك أن تعول عائلة، ولكن ماذا تعني كلمة "عائلة" فهذا ما لا يقوله أحد لأحد. يرسلون الزهور، عشرين باقة، ويعبق المكان برائحة الزهور وكأنك في جنازة، ثم يهشمون أمام باب المنزل أوان خزفية [١٤]، ويتركونك وحيدا.

مر عليه رجل لاحظ أنه سكران. سمعه يتغنى: "عيد الميلاد جاءنا"، ولكن برنيش لم يلتفت إليه، لذا فإنه لم يلاحظ أن الرجل يحمل في يده اليمنى دّن الخمر إلا بعد مرور فترة من الوقت. أدرك عندئذ أن صندوق الكرتون الذي يحوي هدايا عيد الميلاد لزوجته يقف وحيدا على الرف الأعلى في حجرة الأمانات. كان بالصندوق شمسية وكتابان وبيانو ضخم مصنوع من الشيكولاته، أصابعه البيضاء من اللوزية، والسوداء من المكسرات المهروسة. كان البيانو-الشيكولاته في ضخامة المعجم، وقد ذكرت له البائعة أن صلاحية الشيكولاته نصف عام.

واصل الحديث مع نفسه قائلا: لعلي كنت صغيرا على الزواج، ربما كان عليّ أن أنتظر حتى تتخلى آنّه عن جديتها بعض الشيء، وأصبح أنا أكثر جدية. ولكنه كان يعلم حق العلم أنه جاد بما فيه الكفاية، وأن جدية آنّه ليست مبالغا فيها. لذا كان يحبها. من أجل الساعة التي تسبق الاستغراق في النوم استغني عن الذهاب إلى السينما وعن

الرقص، بل وعن مواعيده في المساء. عندما يرقد على الفراش كان السلام والتقوى يملآن نفسه، وكان يردد لنفسه عندئذ الجملة التي لم يعد يتذكر نصها بالضبط: "وخلق الله الأرض والقمر، وفصل بين الليل والنهار، وبين النور والظلام. وكان مساء وكان صباح."[١٥] كان يعقد النية على قراءة نص الآيات بالضبط في الكتاب المقدس الخاص بـ آنّه، ولكنه كان دائما ينسى. أن يخلق الله النهار والليل بدا له أمرا عظيما كخلق الزهور والحيوانات والإنسان.

كان يحب تلك الساعة السابقة للاستغراق في النوم أكثر من أي شيء آخر؛ ولكن منذ باتت آنّه لا تتبادل معه الحديث، فإنه يشعر بصمتها كالحجر على قلبه. لو تنطق ببضع كلمات مثل: "أصبح الجو أكثر برودة." أو "ستمطر."، لأحس بارتياح، لو كانت فقط تقول: "نعم، نعم." أو "لا، لا"، أية ثرثرة فارغة، لغمرته السعادة، وما كانت فكرة عودته إلى المنزل ترعبه بهذا الشكل. ولكن وجهها كان يظهر للحظات وكأنه منحوت من الصخر. عرف فجأة في تلك اللحظات كيف ستبدو آنّه عندما يتقدم بها العمر. تملكه الرعب، ورأى نفسه وهو ملقى في المستقبل وقد زاد عمره ثلاثين عاما، وكأنه في عصر حجري. ورأى نفسه أيضا شيخا ذا وجه كوجوه بعض الرجال الذين يعرفهم: وجه تركت فيه التجارب المريرة آثارها، أو وجه متقلص من كثرة ما ازدرد من آلام، أو وجه يطفح صُفرة - أقنعة منثورة بين ساعات اليوم كوجوه الموتى.

في بعض الأحيان كان يتخيل أيضا كيف كانت تبدو وهي صبية، بالرغم أنه لم يتعرف عليها إلا منذ ثلاث سنوات، تخيلها وهي في العاشرة من عمرها، حالمة تقرأ كتابا على ضوء مصباح، جادة، مضيّقة

عينيها، وقد بدا سوادهما تحت الأهداب الشقراء، فاغرة فمها وهي تقرأ. عندما يجلس قبالتها عند تناول الطعام فإن ملامح وجهها تتبدل كالصور التي تتغير ملامحها إذا ما أدرتها ذات اليمين أو ذات اليسار. وخطر على باله فجأة أنها بالتأكيد كانت تأكل بنفس الطريقة وهي طفلة: تقطع البطاطس بالشوكة بحرص، ثم تسكب نقاط من الصلصة فوقها ببطء. التصق الثلج بأهداب عينيه حتى كاد يحجب عنه الرؤية، ومع ذلك استطاع أن يميز الترام رقم ٤ الذي انزلق فوق الجليد محدثا صوتا خفيفا كزلاقة التزحلق.

وواصل التفكير قائلا لنفسه: لعل عليّ أن أتصل بها تليفونيا، أتصل بها عند آل مندر وأطلب مكالمتها، فلا مفر عندئذ من أن تتحدث معي. سيصل الترام رقم ٧ بعد رقم ٤ مباشرة، وهو آخر ترام في هذا المساء. بدأ يستشعر البرودة. تمهل في سيره عبر الميدان، ورأى الترام رقم ٧ المضيء إضاءة باهرة يأتي من بعيد. ظل واقفا أمام كابينة التليفون وهو متردد، مرسلا النظر إلى واجهة عرض أحد المتاجر، حيث وضع العارضون تماثيل مختلفة بدلا من "بابا نويل" والملائكة، ووضعت أيضا عرائس لسيدات يلبسن ثيابا اتسعت فتحتها الأمامية، وقد نثر على أكتافهن العارية قصاصات ورقية، وعلى معاصمهن ثبتت أوراق حلزونية متموجة. كان هناك أيضا تماثيل لرجال ذوي ملامح وسيمة وشعر غزاه الشيب قد أجلسوا بسرعة على كراسي البار، وعلى الأرضية تناثرت سدادات زجاجات الشمبانيا. نزعوا من إحدى الدمى جناحيها وشعرها. وتعجب برنيش كيف يتحول الملاك إلى "بارمان" بهذه السرعة. وألصقت شوارب وشعر أسود مستعار، وعلى الجدران ثُبتت لافتة بالمسامير:

"رأس السنة بدون شمبانيا ؟ " انتهى عيد الميلاد بهذا المتجر قبل أن يبدأ. قال لنفسه: لعل آنّه هي الأخرى كانت صغيرة على الزواج. لم تكن قد جاوزت عامها الواحد والعشرين بعد. أثناء مشاهدته لصورته المنعكسة على واجهة المتجر الزجاجية لاحظ أن الثلج غطي شعره كتاج رقيق، مثلما كان يرى في طفولته الثلج يتوج قوائم السور الخشبي. وخطر على باله أنه ليس من حق المسنين أن يتحدثوا عن فترة الشباب السعيدة؛ فالإنسان لا يواجه في شبابه إلا الصعوبات. لا أحد يساعد أحدا. وفجأة تعجب لأنه لم يكره آنّه بسبب صمتها، ولم يتمن الزواج بأخرى. في مثل هذا الموقف فإن كل الكلام الذي يصل إلى سمعك لا قيمة له: التسامح، الطلاق، البداية من جديد، الزمن كفيل بذلك - كل هذا الكلام لا يجدي نفعا. على الإنسان أن يعالج الأمر بمفرده: لأنه يختلف عن الآخرين، ولأن آنّه زوجة تختلف عن زوجات الآخرين.

مصممو الديكور يثبتون بالمسامير أقنعة على الجدار في سرعة بالغة، ويربطون "البُمب" في خيط طويل. آخر ترام من خط ٧ انطلق منذ فترة طويلة، وصندوق الكرتون وبه هدايا آنّه يقف وحيدا على الرف العلوي.

أنا في الخامسة والعشرين من عمري، ومن أجل كذبة، كذبة صغيرة، كذبة سخيفة كالتي يرتكبها ملايين الرجال كل أسبوع أو كل شهر، سأعاقب بقسوة بالغة: ستقذف بي نظرة إلى المستقبل الحجري، سأجبر على رؤية آنّه وهي متربعة كأبي الهول أمام تلك الصحراء الحجرية، وسأرى نفسي كهلا مصفر الوجه من المرارة. أجل، زجاجة التوابل ستكون على الرف دائما، والمملحة على اليمين، وسيُرقى عما

قريب إلى درجة رئيس قسم، وسيستطيع إعالة أسرته بيسر، هذه الأسرة الحجرية، ولن يكون في استطاعته بعد الآن أن يرقد على الفراش ويمجد خلق المساء في تلك الساعة التي تسبق الاستغراق في النوم، وأن يشكر الخالق على أوقات الفراغ الكثيرة؛ وسيبعث للمتزوجين في حفل زواجهم ببرقيات سخيفة كالتي تلقاها ...

مثل هذه الكذبة عن المرتب قد تضحك زوجات أخريات ؛ فالزوجات الأخريات يعلمن أن كل الرجال يكذبون على زوجاتهم، لعله نوع من الدفاع الطبيعي عن النفس، ولكي يدافعن عن أنفسهن فقد اخترعن هن أيضا أكاذيبهن. ولكن وجه آنّه تحجر. هناك كتب كثيرة عن الزواج، وقد قرأ في هذه الكتب ما الذي يفعله الإنسان إذا تعرض شيء في الزواج للفشل؛ ولكنه لم يجد في أي كتاب سطرا عن زوجة تحجرت. ورد بالكتب كيف تنجب أطفالا، وكيف لا تنجب، ورد الكثير من الكلام العظيم والجميل، ولكن الكلام البسيط لم يكن له أثر.

انتهى مصممو الديكور من عملهم. الورق الفضي الحلزوني المتموج معلق الآن على أسلاك تكاد تكون غير مرئية. رأى في خلفية المتجر رجلا يختفي وتحت إبطه ملاكان، بينما أخذ الآخر ينثر قصاصات الورق على أكتاف الدمية العارية، ويعدل من وضع لافتة "رأس السنة بدون شمبانيا ؟"

نفض برنيش الثلج عن شعره ثم مشى عبر الميدان راجعا إلى ساحة المحطة، وما كاد يُخرِج إيصال الأمانات للمرة الرابعة باسطا إياه حتى أسرع وكأنه لم يعد لديه ثانية واحدة ليفقدها. ولكن شباك الأمانات كان مغلقا، وأمام قضبانه قرأ لافتة مكتوب عليها: " يفُتح قبل وصول أو

قيام القطارات بعشر دقائق ". وضحك برنيش، ضحك لأول مرة منذ الظهيرة، ونظر إلى صندوق الكرتون الذي بدا كالسجين فوق الرف الأعلى وراء القضبان. كان جدول مواعيد وصول وقيام القطارات معلقا بجانب الشباك. وجد أن القطار التالي لن يصل إلا بعد ساعة. لا أستطيع أن أنتظر ساعة كاملة، ولن أجد في مثل هذا الوقت المتأخر باقة زهور أو باكو شيكولاته، أو حتى كتيب، وآخر ترام من خط ٧ قد انطلق. ولأول مرة في حياته فكر في أن يستقل سيارة أجرة. عندما اجتاز ساحة المحطة قاصدا سيارة أجرة، شعر أنه قد غدا إنسانا بالغا ناضجا، وفي الوقت نفسه أحمق بعض الشيء.

جلس في مقعد السيارة الخلفي ممسكا بنقوده في يده: عشرة ماركات، آخر ما تبقي معه من نقود، كان قد ادخرها ليشتري لآنّه هدية أخرى تُدخل السرور إلى قلبها، ولكنه لم يجد هدايا يمكن أن تسرها. وها هو الآن يجلس ممسكا بنقوده الأخيرة في يده، مراقبا عداد السيارة الأجرة الذي يقفز كل فترة وجيزة - بدت له فترة وجيزة للغاية - بفنكا آخر، وفي كل مرة يكاد يصيبه الصوت - الذي يُحدثه العداد عند كل رقم جديد - في قلبه، بالرغم من أن العداد لم يكن قد سجل أكثر من ٢,٨ مارك. سأرجع إلى المنزل بلا زهور، بلا هدايا، جائعا، متعبا، وغبيا. وخطر على باله أنه كان يستطيع بالتأكيد شراء شيكولاته من صالة الانتظار بالمحطة.

خلت الشوارع من المارة. خفت صوت السيارة تماما وهي تسير فوق الثلج. استطاع برنيش أن يرى خلف نوافذ البيوت المزينة بمصابيح صغيرة مُنارة أشجارَ عيد الميلاد ترسل أضواءها الملونة: بدا له الفارق شاسعا

بين عيد الميلاد، كما عاشه وهو طفل وكما أحس به اليوم؛ الأحداث الهامة والعظيمة لا علاقة لها بالتقويم المعتاد، فعيد الميلاد ـ في الصحراء الحجرية ـ يمر كأي يوم من أيام العام، وعيد القيامة يشبه يوما مطيرا في شهر نوفمبر. ثلاثون، أربعون تقويما يمرون عليك، ولا يتبقى ـ إذا لم تنتبه ـ سوى حامل التقويم المعدني وعليه بقايا أوراق متهرئة.

فزع عندما قال السائق: " وصلنا ... " ثم أحس بالراحة عندما نظر إلى عداد السيارة فوجد الثمن ٤٠ ، ٣ مارك. انتظر نافد الصبر حتى حصل على باقي الماركات الخمسة. انشرح صدره عندما رأى ضوءا ينبعث من الحجرة بالدور العلوي حيث فراش آنّه بجانب فراشه. عقد عزمه ألا ينسي لحظة الراحة هذه أبدا. ما كاد يُخرج مفتاح المنزل ويدخله في ثقب الباب حتى أحس بذلك الشعور السخيف مرة أخرى، ذلك الشعور الذي انتابه عندما استقل السيارة الأجرة: شعر بأنه قد غدا إنسانا ناضجا، وفي الوقت نفسه أحمق بعض الشيء.

رأى شجرة عيد الميلاد فوق مائدة المطبخ. كانت هناك أيضا هدايا له: جوارب وسجائر وقلم حبر جديد ونتيجة جميلة بالألوان يستطيع أن يعلقها فوق مكتبه. الحليب في الإناء فوق الموقد، ما عليه سوى أن يشعل الغاز. السندوتشات على الطبق. ولكن هذا ما يحدث كل يوم، حتى منذ أصبحت آنّه لا تتبادل معه الحديث؛ ثم إن وضع شجرة عيد الميلاد وإعداد الهدايا مثله مثل إعداد السندوتشات: واجب، و آنّه تؤدي دائما ما عليها من واجبات. لم تكن له رغبة في شرب الحليب، وشرائح الخبز اللذيذة لم تُثر شهيته أيضا. مشى عبر الممر الضيق ولاحظ على الفور أن آنّه كانت قد أطفأت النور، ولكن باب حجرة النوم ظل مفتوحا.

نادى بصوت خافت داخل الجدران الأربعة غير منتظر إجابة: " آنّه، هل أنت نائمة؟ " وشعر بوطأة الانتظار عليه ثقيلة، وكأنه ألقى بسؤاله في بئر لا قرار له. ابتلع الصمت المظلم بالحجرة المظلمة كل ما ينتظره خلال ثلاثين أو أربعين عاما قادمة، وعندما قالت آنّه: "لا"، اعتقد أنه أخطأ السمع. لعله كان خداعا. واصل الحديث بسرعة وبصوت عال: "لقد ارتكبت حماقة. أودعت الهدايا التي اشتريتها لك بأمانات المحطة، وعندما أردت استردادها كان الشباك قد أغلق، ولم أرد الانتظار . هل أخطأت؟" في تلك المرة كان متأكدا من سماع "لا"، ولكن من الواضح أيضا أن "لا" هذه لا تأتي من ركن الحجرة حيث يوجد فراشهما. لابد أن آنّه نقلت فراشها تحت النافذة. "اشتريت شمسية وكتابين وبيانو صغير من الشيكولاته في ضخامة المعجم، أصابعه من اللوزية والمكسرات المهروسة." ولم يكمل منتظرا الإجابة في إصغاء، ولكن لم يأت من جنبات الحجرة إلا الصمت. وحين سألها: " هل أنت سعيدة؟ " جاءت "نعم" أسرع من "لا" السابقتين ...

أطفأ نور المطبخ، وخلع ثيابه في الظلام، ورقد على فراشه. من خلال الستائر كان يرى أشجار عيد الميلاد في المنزل الواقع أمامهما، ومن الدور السفلي تناهى إلى سمعه غناء. ها هو يستقبل ساعته المحبوبة مرة أخرى. لقد تلقى إجابتي "لا" وواحدة "نعم". وعندما اقتربت سيارة عبر الشارع رسمت الكشافات بروفيل آنّه الآتي من الظلام.

الضاحك

كلما سألوني عن مهنتي تنتابني الحيرة ويحمّر وجهي وأتلعثم ... أنا المعروف بالثقة بالنفس. أحسد الذين يستطيعون القول: أنا بنّاء، كما أحسد الحلاقين والمحاسبين والمؤلفين على بساطة إجاباتهم؛ فكل هذه المهن تشرح نفسها بنفسها ولا تتطلب تفسيرات مطولة. أما أنا فمجبر على أن أجيب عن هذه الأسئلة قائلا: أنا ضاحك. هذا الاعتراف يتطلب اعترافات أخرى، لأنني يجب أن أجيب عن السؤال التالي أيضا، وهو: أتتعيش من ذلك؟ برد يطابق الحقيقة، وهو: نعم. أنا أتعيش فعلا من ضحكي، بل وأتعيش منه بيسر، فضحكي - بالتعبير التجاري - مطلوب. وأنا ضاحك مجيد، ضاحك متدرب، لا أحد يضحك مثلي، ولا أحد غيري يتقن الفروق الدقيقة في فني. كنت لفترة طويلة - وهربا من التفسيرات الثقيلة - أعتبر نفسي ممثلا، ولكن قدراتي الإيمائية والكلامية محدودة للدرجة التي تبدو معها هذه التسمية غير مطابقة للحقيقة، وأنا أحب الحقيقة، والحقيقة هي: إنني ضاحك. لستُ مهرجا ولا ممثلا كوميديا، لا، أنا لا أبهج الناس، وإنما أجسد البهجة ذاتها: فأنا أضحك كإمبراطور روماني، أو كتلميذ مرهف الحس في المرحلة الثانوية، أجيد ضحك القرن السابع عشر، كما أعرف كيف يكون ضحك التاسع

عشر، وإذا اقتضت الضرورة فأنا أضحك كل القرون، وكل الطبقات الاجتماعية، وكل الأعمار. ببساطة: لقد تعلمت ذلك، تماما كما تتعلم كيف تركب نعلا للحذاء. في صدري تكمن طريقة ضحك الأمريكي، وضحك الأفريقي .. الضحك الأبيض والأحمر والأصفر - ولقاء مكافأة مُجزية أُطلق هذه الضحكات وفقا لتعليمات المخرج.

الاستغناء عني أصبح مستحيلا، فأنا أضحك على اسطوانات وعلى شرائط، وأصبح مخرجو التمثيليات الإذاعية يعاملونني باحترام. وأنا أستطيع أن أضحك بكآبة، وباعتدال، وبهستيرية، أضحك كمحصل ترام أو كصبي بقال، ضحك الصباح والمساء، الضحك الليلي وضحك ساعة الغروب، باختصار: حيثما وكيفما يجب أن يضحكون: لدي القدرة على ذلك.

ستصدقونني عندما أقول لكم إن مثل هذه المهنة مُجهدة، وخاصة وأنا - وهذا هو ما يميزني - أتقن الضحك المعدي كذلك، وبذلك أصبح من المستحيل أيضا أن يستغني عني الممثلون الكوميديون من الدرجة الثالثة والرابعة الذين يرتعدون ارتعادا عند أداء فقراتهم. لا يكاد يمر مساء دون أن أكون جالسا في مسارح المنوعات - كطريقة أرقى من الهتاف المأجور - لكي أضحك بطريقة مُعدية في مواطن الضعف من البرنامج. ويجب أن أنفذ العمل في غاية الدقة: فضحكاتي العارمة المجلجلة لا يجب أن تنطلق قبل أوانها، ولا بعد أوانها أيضا، بل في اللحظة المناسبة - عندها تنفجر ضحكاتي وفقا للبرنامج، ويضج الجمهور كله بالضحك معي، وتُنقذ الفقرة.

أما أنا فأتسلل منهك القوى إلى مكان تعليق الملابس، وأرتدي

معطفي سعيدا بأنني أخيرا قد انتهيت من عملي. وفي المنزل أجد غالبا برقيات في انتظاري: "في أشد الحاجة لضحكك. التسجيل الثلاثاء." بعدها أكون قابعا في القطار السريع - ذي التدفئة العالية جدا - نادبا حظي.

كلكم ستدركون أنني بعد انتهائي من العمل، أو في إجازاتي، أكون قليل الميل إلى الضحك: فاللّبان يسعد عندما ينسى البقرة، والبنّاء عندما ينسى المونة؛ النجارون غالبا ما يكون لديهم في بيوتهم أبوابا لا تُغلق أو أدراجا لا تُفتح إلا بصعوبة بالغة. صناع الحلوى يحبون الخيار المخلل، والجزارون يعشقون الحلوى، والخباز يفضل السجق على الخبز، مصارعو الثيران يعشقون مداعبة الحمام، والملاكمون تمتقع وجوههم إذا ما أصيب أحد أطفالهم بنزيف في الأنف: كل هذا أدركه، لأنني لا أضحك بعد انتهائي من العمل أبدا. أنا إنسان جاد جدية الموت، والناس يعتبرونني متشائما، وقد يكون لديهم حق.

في السنوات الأولى لزواجنا كانت زوجتي تقول لي مرارا: اضحك ولو مرة! ولكن بمرور الأيام اتضح لها أنني لا أستطيع أن ألبي هذه الرغبة، فالجدية العميقة تجعلني سعيدا، لأنها تُريح عضلات وجهي المرهقة ونفسي المجهدة. أجل، بل وضحك الآخرين أيضا يجعلني عصبيا لأنه يذكرني - بشدة - بمهنتي. وهكذا نحيا حياة زوجية هادئة يغمرها السلام، لأن زوجتي قد نسيت الضحك هي الأخرى. من آن لآخر أضبطها مبتسمة، عندئذ أبتسم أنا أيضا. بصوت خافت نتبادل أحاديثنا، فأنا أكره ضجيج صالات المسارح. أكره الضجيج الذي يسود في بعض الأحيان حجرات التسجيل. والذين لا يعرفونني يعتبرونني إنسانا منغلقا، وقد أكون كذلك لأنني مُجبر على فتح فمي مرارا لأضحك.

بملامح جامدة أحيا حياتي. لا أسمح لنفسي إلا بين الحين والآخر بابتسامة بسيطة، وغالبا ما يأخذني التفكير بعدها: هل ضحكت؟ أعتقد: لا. وأخوتي يحكون عني أيضا أنني كنت دائما صبيا جادا.

وهكذا أضحك بطرق عديدة .. ولكني لا أعرف لنفسي ضحكة مميزة.

هنا تيبتن

قساة القلوب لا يفهمون لماذا أهتم بوظيفتي وأتفانى في أدائها بهذا الشكل، وهي الوظيفة التي لا يعتبرونها أهلا لي. قد لا يتوافق عملي بالفعل مع درجة تعليمي، وأيضا لم تدر حوله في يوم ما أية أغنية من الأغاني العديدة التي غُنيت لي في المهد. ولكن عملي يمتعني، ومنه أتعيش: أنا أقول للناس أين هم.

مسافرو هذه الأيام، الذين يركبون من مختلف المحطات في المساء قطارات تحملهم إلى أماكن بعيدة، يستيقظون في الليل عند محطتنا. في ارتباك يحدقون في الظلام، لا يعلمون إذا كانوا قد جاوزوا هدفهم، أو أنهم لم يصلوا بعد إلى الهدف، أو ربما كانوا عند الهدف تماما (ففي مدينتنا آثار شديدة التنوع تجذب أفواجا من السياح). أقول لهؤلاء جميعا أين هم. أفتح مكبر الصوت بمجرد دخول قطار إلى المحطة وبعد توقف عجلات قاطرته. مترددا أطلق عبارتي في وجه الظلام: "هنا تيبتن – أنتم الآن في تيبتن. على المسافرين الذين يريدون زيارة مقبرة تيبورتيوس النزول هنا." ويتردد صوتي عبر الأرصفة حتى يرجع صداه إلى الكابينة التي أجلس فيها: صوت مظلم يخترق الظلام، يبدو وكأنه يعلن شيئا مشكوكا في أمره على الرغم أنه لا ينطق إلا بالحقيقة عاريةً.

يتدافع بعضهم عندئذ في لهوجة على رصيف المحطة المضاء إضاءة خافتة ومعهم حقائبهم، فمحطة تيبتن هم هدفهم. أراهم ينزلون الدرج، ثم يظهرون ثانية على رصيف ١ وهم يسلمون تذاكر سفرهم عند البوابة للموظف النعسان. في القليل النادر يأتينا أيضا في الليل مسافرون لهم طموحات تجارية، وذلك لتغطية احتياج شركاتهم من مناجم الرصاص في تيبتن. ولكن في الأغلب يأتينا سياح تجذبهم مقبرة تيبورتيوس، الفتى الروماني الذي انتحر منذ ١٨٠٠ عام مأخوذا بفتنة إحدى جميلات تيبتن. "لم يكن قد تعدى الصبا" .. هذه الكلمات المنقوشة على شاهد قبره الذي يمكنكم مشاهدته والإعجاب بعراقته في متحف مدينتنا، "ولكن الهوى صرعه." كان الفتى قد جاء من روما إلى مدينتنا لكي يشتري خام الرصاص لأبيه الذي يعمل موردا للجيش.

لم أكن بالطبع في حاجة إلى التردد على خمس جامعات والحصول على درجتي دكتوراه لأتحدث ليلة بعد أخرى في وجه الظلام قائلا: "هنا تيبتن - أنتم الآن في تيبتن." ولكن عملي يملأني في الحقيقة بالرضا. أتلو جملتي بصوت خافت لا يوقظ النائمين، لكنه أيضا لا يعبر آذان المستيقظين دون أن يسمعوه. وأحمّل صوتي نبرات الإلحاح حتى يفكر الغافون مرة وأخرى، ويقررون إذا كانت تيبتن هي هدفهم.

عندما أستيقظ في الدقائق الأخيرة للضحى وألقي نظرة من نافذة المنزل، أرى المسافرين الذين استسلموا لإغراء صوتي في الليل وهم يتجولون في مدينتنا الصغيرة مسلحين بالكتيبات التي يقوم مكتبنا السياحي بإرسالها بسخاء إلى جميع أنحاء العالم. أثناء تناولهم للإفطار يكونون قد قرأوا أن كلمة تيبتن تنحدر من الكلمة اللاتينية

تيبورتينوم، التي ظلت تتغير وتتبدل عبر القرون حتى استقرت في شكلها الحاضر. ها هم الآن يذهبون إلى متحف مدينتنا حيث يُعجبون بشاهد القبر الذي وُضع فوق قبر فيرتر الروماني منذ ١٨٠٠ عام: بروفيل الصبي كان منحوتا على الحجر الرملي المائل للحمرة وهو يمد يديه عبثا نحو فتاة. "لم يكن قد تعدى الصبا، ولكن الهوى صرعه ..." وتشير أيضا إلى عمره الغض تلك الأشياء التي وُجدت في قبره: أشكال صغيرة في لون العاج لاثنين من الفيلة وحصان وكلب. والأشكال كما يدعي بروزلر في كتابه "نظريتي في مقبرة تيبورتيوس" كانت نوعا من لعبة الشطرنج. ولكنني أشك في صحة هذه النظرية، بل إنني متأكد أن تيبورتيوس كان يلهو بهذه الأشياء كما يلهو الأطفال. هذه الأشكال الصغيرة العاجية تبدو تماما كمثيلاتها التي نحصل عليها هدية عندما نشتري نصف رطل من السمن النباتي، وهي تؤدي الغرض نفسه: الأطفال يلهون بها ... ولعل لزاما عليّ أن أشير هنا إلى الكتاب الممتاز لكاتب مدينتنا فولكر فون فولكرسن الذي ألف رواية ممتازة بعنوان: "تيبورتيوس: قدر روماني اكتملت فصوله في بلدتنا". إلا أنني أعتبر عمل فولكرسن مضللا، فهو يأخذ أيضا بنظرية بروزلر فيما يخص الهدف من أدوات اللعب.

أنا نفسي - ولابد هنا أن أقر و أعترف أخيرا بذلك - أحوز الأشكال الأصلية التي كانت في قبر تيبورتيوس؛ سرقتها من المتحف، واستبدلتها بأخرى كنت قد حصلت عليها هدية عند شرائي نصف رطل من السمن النباتي: فيلان وحصان وكلب، لونهم الفاتح يشبه لون حيوانات تيبورتيوس، لهم نفس الحجم ونفس الوزن، وأيضا - وهذا ما

يهمني بصورة خاصة - تؤدي الغرض نفسه.

وهكذا يأتي السياح من كل أنحاء العالم ليشاهدوا ويُعجبوا بقبر تيبورتيوس ولعبه. في كل صالات العالم الأنجلوسكسوني يلصقون إعلانات مكتوب عليها: Come to Tibten، وعندما أقول في الليل قولي: "هنا تيبتن - أنتم الآن في تيبتن. على المسافرين الذين يريدون زيارة مقبرة تيبورتيوس النزول هنا."، فإنني أستدرج ركاب قطارات هذه الأيام الذين أغواهم إعلاننا المعلق في محطات قطار بلادهم. لن يفوتهم طبعا رؤية لوح الحجر الرملي الذي لا يرقى إلى أصالته التاريخية أي شك، وسوف يتطلعون إلى البروفيل المؤثر لفتى روماني صرعه الهوى فأغرق نفسه في حفرة مشبعة بالمياه من حفر منجم الرصاص، ثم تنزلق أعينهم إلى الحيوانات الصغيرة: فيلان وحصان وكلب - وهنا بالذات يمكن للسياح أن يدرسوا حكمة هذا العالم، ولكنهم لا يفعلون. وتقوم فتيات من داخل البلاد وخارجها - وقد مس التأثر شغاف قلوبهن - بتكويم الورد على قبر الصبي. وتُنظم القصائد، بل لقد أضحت حيواناتي أيضا - الحصان والكلب (لابد أن أكون استهلكت رطلين من السمن النباتي حتى أحصل عليهما) - موضوعا لمحاولات شعرية. "وتلعبين كما نلعب بالكلب والحصان ..." هذا هو أحد أبيات قصيدة لشاعر حظي ببعض الشهرة. ها هي الحيوانات ترقد هناك على قطيفة حمراء وراء زجاج سميك في متحف مدينتنا: هدية مجانية من شركة كلوسهنرز-أيجلب للسمن النباتي - شواهد على استهلاكي للسمن النباتي. وفي الغالب - وقبل أن أذهب في العصر إلى الوردية أزور لدقيقة متحف المدينة وأتأملها: تبدو أصلية، لونها حال إلى الصفرة ولا

يمكن بأي حال من الأحوال أن تختلف عن تلك التي ترقد في درجي: إذ أنني ألقيت باللعب الأصلية بين لعب أخرى حصلت عليها عند شراء سمن كلوسهنرز النباتي، وكم حاولت استخراج الأصليين، ولكن بلا جدوى.

مستغرقا في التأمل أمضي عندئذ إلى عملي، أعلق قبعتي على المشجب، وأخلع السترة، وأضع سندوتشاتي في الدرج، وأرتب ورق سجائري والتبغ والجريدة، وعند وصول قطار أقرأ تلك الجملة الواجب عليّ ترديدها: "هنا تيبتن - أنتم الآن في تيبتن. على المسافرين الذين يريدون زيارة مقبرة تيبورتيوس النزول هنا." أقول ذلك بصوت خافت لا يوقظ النائمين، لكنه أيضا لا يعبر آذان المستيقظين دون أن يسمعوه. وأحمل صوتي نبرات الإلحاح حتى يفكر الغافون مرة وأخرى، ويقررون إذا كانت تيبتن هي هدفهم.

ولا أفهم كيف يعتبر الناس هذه الوظيفة ليست أهلا لي.

كما يحدث في الروايات السيئة

كنا قد دعونا آل تسومبن لقضاء الأمسية معنا، وهم أناس لطفاء أدين بالتعرف إليهم إلى حمي الذي يسعى منذ زواجنا إلى أن يعرفني بالذين يستطيعون إفادتي في مجال العمل، وتسومبن يستطيع أن يفيدني: فهو رئيس إحدى اللجان التي تقوم بالفصل في العطاءات المقدمة لبناء المجمعات السكنية الكبيرة، وأنا - بزواجي - قد أصبحت أملك شركة لأعمال الحفر.

كنت عصبيا في ذلك المساء، لكن زوجتي برتا أخذت تهدئني قائلة: "إن مجرد مجيئه يعني شيئا .. كل ما عليك هو أن تحاول توجيه الحديث بحرص إلى موضوع العطاء، أنت تعلم أنه سوف يرسو غدا."

وقفت خلف ستارة باب البيت منتظرا تسومبن. أخذت أدخن ثم دهست عقب السيجارة بقدمي، وألقيت بداوسة الأقدام فوقه. بعد ذلك بقليل وقفت خارج شباك الحمام أفكر فيما جعل تسومبن يقبل الدعوة، فهو لا يعنيه كثيرا أن يتناول العشاء لدينا، كما أن عطاء المناقصة الكبيرة التي اشتركت فيها سيرسو غدا، فالمفروض أن يكون الأمر محرجا بالنسبة له، كما كان بالنسبة لي. أخذت أفكر في العطاء أيضا: كان عطاء ضخما، سأربح من ورائه ٢٠٠٠٠ مارك، وكنت أتلهف على الحصول على النقود.

كانت برتا قد قامت باختيار بدلتي: جاكت داكن، بنطلون أفتح قليلا، وكرافتة محايدة اللون. مثل هذه الأشياء تعلمتها في بيت أبيها، وفي المدرسة الداخلية على يد الراهبات. تعلمت أيضا ماذا يُقدم للضيوف: متى يُقدم الكونياك، أو الفيرموت، وكيف تُنسق الحلويات. من المريح أن يكون لديك زوجة تتقن مثل هذه الأشياء.

ولكن برتا كانت عصبية أيضا، وعندما وضعت يديها على كتفي ولمستا عنقي، أحسست برطوبة إصبعي الإبهام وبرودتهما. قالت: "سيسير كل شيء على ما يرام .. ستحصل على العطاء." فقلت: "يا إلهي، سأكسب من وراء ذلك ٢٠٠٠٠ مارك، وأنت تعلمين كم نحن بحاجة إلى هذا المبلغ." فردت بصوت خفيض: "لا ينبغي علينا أبدا أن نذكر اسم الله مقترنا بالنقود."

توقفت سيارة داكنة اللون أمام منزلنا، لم أعرف ماركتها، ولكنها بدت إيطالية الصنع. همست برتا: "تمهل، انتظر حتى يدقوا الجرس، دعهم يقفون ثانيتين أو ثلاثا، ثم اذهب إلى الباب ببطء وافتح."

رأيت آل تسومبن يصعدون الدرج: هو طويل القامة رشيقها، قد غزا الشيب فوديه .. واحد من أولئك الذين كان يُطلق عليهم في الثلاثينات لقب "فهلوي". أما السيدة تسومبن فهي من تلك النساء النحيفات السمراوات اللاتي إذا نظرت لهن فلابد وأن أفكر في الليمون. ونظرت إلى وجه تسومبن الذي ارتسمت عليه علامات الملل الفظيع لتناوله العشاء معنا.

ثم دق الجرس، وانتظرت ثانية، ثانيتين، ثم ذهبت ببطء إلى الباب وفتحته قائلا: "أهلا وسهلا، شرفتمونا بزيارتكم." وتجولنا في الشقة

وكؤوس الكونياك في أيدينا، بعد أن أبدي آل تسومبن رغبتهما في التفرج عليها. بقيت برتا بالمطبخ حتى تضع المايونيز - مفرغة إياه من أنبوبة - على المشهيات، وترسم به أشكالا لطيفة: قلوب، وخطوط متموجة، وبيوت صغيرة. أعجبت شقتنا آل تسومبن. تبادلا الابتسام عندما رأيا المكتب الضخم في حجرة عملي، في تلك اللحظة بدا المكتب في عيني أيضا ضخما بعض الشيء.

امتدح تسومبن دولابا صغيرا من طراز الروكوكو أهدته لي جدتي بمناسبة زواجي، وكذلك تمثالا باروكيا للسيدة العذراء في حجرة نومنا.

عندما رجعنا إلى حجرة الطعام كانت برتا قد أعدت المائدة، وهو ما فعلته بطريقة لطيفة أيضا: جميلة جدا وطبيعية جدا في الوقت نفسه. أكلنا في جو يبعث على الراحة. تبادلنا الأحاديث حول الأفلام والكتب والانتخابات الأخيرة. أثنى تسومبن على أصناف الجبن المختلفة، بينما امتدحت السيدة تسومبن القهوة والكاتوه. ثم أرينا آل تسومبن صورنا في رحلة شهر العسل: صور على أحد شواطئ أسبانيا، وحمير أسبانية، ومناظر لشوارع في الدار البيضاء.

احتسينا الكونياك بعد ذلك مرة أخرى، وعندما أردت النهوض لأحضر صندوق الكرتون الذي يحوي صور فترة الخطوبة أعطتني برتا إشارة، ولم أحضر الصندوق. ثم ساد الصمت التام لدقيقتين، لأننا لم نعد نجد مادة للحديث، واتجه تفكيرنا جميعا إلى العطاء: فكرت في العشرين ألف مارك، وخطر على بالي أنني أستطيع أن أخصم ثمن زجاجة الكونياك من الضرائب. ثم نظر تسومبن إلى ساعته قائلا: "ياه .. الساعة الآن العاشرة .. لابد أن ننصرف. كانت أمسية لطيفة للغاية." وقالت السيدة

تسومبن: "كانت رائعة .. آمل أن أراكما ذات يوم بمنزلنا." فردت برتا: "بكل سرور." ووقفنا حوالي نصف دقيقة، واتجه تفكيرنا جميعا إلى العطاء مرة أخرى، وأحسست أن تسومبن ينتظر أن أنتحي به وأكلمه عن العطاء. لكنني لم أفعل. قبّل تسومبن يد برتا، وتقدمتهم أنا فاتحا الأبواب. وفي الشارع فتحت باب السيارة للسيدة تسومبن.

قالت برتا برفق: "لماذا لم تتحدث معه عن العطاء؟ أنت تعلم أنه سيرسو غدا." فأجبت: "يا إلهي، لم أعرف كيف أوجه الحديث إلى هذا الموضوع." فردت برفق: "يا رجل! كان يجب أن تطلب منه - تحت أي حجة - أن يذهب إلى غرفة مكتبك، وهناك كان عليك أن تحدثه. من المؤكد أنك لاحظت أنه يهتم بالفن اهتماما بالغا. كان عليك أن تقول: مازال لدي صليب يُعلق على الصدر من القرن الثامن عشر، قد يهمك أن تراه، ثم .."

لم أنطق، أما هي فتنهدت وربطت حزام المريلة حول خصرها. وتبعتها إلى المطبخ، ورتبنا ما تبقى من المشهيات ووضعناه في الثلاجة، وانحنيت على الأرض باحثا عن غطاء أنبوبة المايونيز، ثم أعدت زجاجة الكونياك إلى مكانها، وأحصيت السيجار: لقد دخن تسومبن واحدا فقط. أفرغت منافض السجائر، ثم أكلت قطعة كاتوه على الواقف، وألقيت نظرة في براد القهوة لأرى إذا كان هناك قهوة متبقية. عندما عدت إلى المطبخ كانت برتا واقفة هناك ومفتاح السيارة في يدها.

وسألت: "ما الخبر؟"

فأجابت: "طبعا لا بد أن نذهب إلى هناك."

- إلى أين؟

- إلى أين؟ إلى آل تسومبن طبعا؟

- الساعة تقترب من العاشرة والنصف مساء.

- حتى لو كنا في منتصف الليل. حسب علمي فإن الأمر يدور حول ٢٠٠٠٠ مارك، ولا تظن أنهم حساسون إلى هذه الدرجة.

وذهبت إلى الحمام لتهيئ نفسها، ووقفتُ خلفها أرقبها وهي تزيل ما على شفتيها، ثم تعيد دهنها من جديد. ولأول مرة أنتبه إلى اتساع هذا الفم وبلاهته. وعندما قامت بربط الكرافتة كان من الممكن أن أقبلها - كما كنت أفعل كل مرة - لكنني لم أقبلها.

كان الضوء يسطع في مقاهي المدينة ومطاعمها، وقد جلس الناس في الشرفات الخارجية، وتلألأ ضوء المصابيح على كؤوس وأكواب الآيس كريم الفضية. نظرت برتا إليّ مشجعة، ولكنها بقيت في السيارة عندما توقفنا أمام منزل تسومبن. ضغطت فورا على الجرس، ودهشت لسرعة فتح الباب. لم تبد على السيدة تسومبن أي دهشة لمرآي. كانت ترتدي بدلة منزلية سوداء مطرزة بالزهور الصفراء وذات رجلي بنطلون فضفاضتين. وأكثر من ذي قبل كنت مجبرا أن أفكر في الليمون. قلت لها: "آسف للإزعاج .. أود أن أتحدث مع زوجك." فقالت: "إنه ما زال بالخارج، سيعود في خلال نصف ساعة." ورأيت في الممر تماثيل عديدة للسيدة العذراء: من الطراز القوطي، والباروكي، بل وأيضا من طراز الروكوكو - إن كان لها وجود من الأساس. قلت لها: "جميل. سأرجع - إذا كنت تسمحين - بعد نصف ساعة."

كانت برتا قد اشترت جريدة مسائية: أخذت تقرأ وتدخن، وعندما جلست بجانبها قالت: "أعتقد أنه كان بإمكانك محادثتها هي أيضا في الموضوع."

- من أين عرفت أنه ليس هناك؟

- لأنني أعـرف أنه يجلس في نادي "الغـافل" ويلعب الشطرنج كعادته في مثل هذا الوقت من مساء كل أربعاء.

- كان بإمكانك أن تخبريني بذلك من قبل.

فقالت برتا وهي تطوي الجريدة المسائية:

- افهمني، إنني أرغب في مساعدتك، أرغب أن تتعلم كيف تنجز مثل هذه الأعمال وحدك. ما كنا نحتاج سوى الاتصال تليفونيا بأبي وكان سينهي الموضوع بمكالمة تليفونية واحدة، لكن أريد أن تحصل على العطاء بمفردك.

- جميل. ماذا نفعل إذن؟ هل ننتظر نصف الساعة، أم نصعد مباشرة ونتحدث معها؟

- الأفضل أن نصعد مباشرة.

وهبطنا من السيارة وركبنا المصعد. قالت برتا: "إن أهم شيء في الحياة هو التوصل إلى حلول وسط وتقديم تنازلات."

كانت دهشة السيدة تسومبن ضئيلة، تماما مثلما كانت عندما جئت بمفردي. حيتنا وقادتنا إلى غرفة مكتب زوجها. أحضرت السيدة تسومبن زجاجة الكونياك، وصبت لنا، وقبل أن أستطيع أن أقول شيئا عن العطاء، كانت قد دفعت إلي ملفا أصفر قرأت عليه: "وحدات حي الصنوبر السكنية"، ونظرت مرتاعا إلى السيدة تسومبن وإلى برتا، ولكنهما ابتسمتا معا، وقالت السيدة تسومبن: "افتح الدوسيه"، وفتحته، وبداخله وجدت ملفا آخر وردي اللون قرأت عليه: "وحدات حي الصنوبر السكنية - أعمال الحفر"، وفتحت أيضا هذا الغلاف، ورأيت

بأعلى الصفحة أرقام العطاء الذي قدمته. كان أحدهم قد كتب بقلم أحمر على الهامش العلوي للصفحة: "أقل العروض سعرا".

شعرت باحمرار وجهي من الفرحة، وأحسست بقلبي يدق، وأخذت أفكر في العشرين ألف مارك.

قلت بصوت خافت: "يا إلهي!"، وأغلقت الملف، ونسيت برتا أن تحذرني هذه المرة، ثم قالت السيدة تسومبن مبتسمة: "فلنشرب في صحتكم."

وشربنا، ثم نهضت قائلا: "قد يكون الأمر غير لائق، ولكن لعلك تقدرين أنني أرغب في الانصراف الآن."

قالت السيدة تسومبن: "أقدر ذلك جيدا، لم يبق إلا أمر بسيط لننجزه." ثم أخذت الملف وقلبت أوراقه قائلة: "سعر المتر المكعب عندك أقل بثلاثين بفنكا عن السعر التالي في الرخص. أقترح أن ترفع السعر ١٥ بفنكا أخرى، وستظل الأقل سعرا، بل وستربح فوق ذلك ٤٥٠٠ مارك. هيا، فلتفعل ذلك الآن." أخذت برتا القلم الحبر من حقيبة يدها وناولتني إياه، ولكنني كنت مضطربا حتى أنني لم أستطع الكتابة، فأعطيت الملف لبرتا، وأخذت أراقبها وهي تعدل ثمن المتر بيد ثابتة، وتعيد كتابة المبلغ الإجمالي، ثم أرجعت الملف إلى السيدة تسومبن التي قالت: "والآن لا يتبقى إلا شيء آخر بسيط. خذ دفتر شيكاتك، ووقع على شيك بثلاثة آلاف مارك، يجب أن يكون الشيك لحامله ومخصوما من حسابك." كان الكلام موجها إليّ، ولكن برتا هي التي أخذت دفتر شيكاتنا من حقيبتها، ووقعت الشيك. قلت بصوت خفيض: "سيكون بلا رصيد." فقالت السيدة تسومبن: "ستتقاضى مقدما عند رسو العطاء عليك، عندها سوف يغطي رصيدك المبلغ."

ربما استعصى عليّ فهم ذلك وقت حدوثه. أثناء هبوطنا بالمصعد قالت برتا إنها تشعر بالسعادة، لكنني لزمت الصمت. اختارت برتا طريقا آخر، وقادت السيارة عبر أحياء هادئة، رأيت الضوء في النوافذ المفتوحة والناس جالسين في الشرفات يحتسون النبيذ. كانت ليلة مضيئة دافئة.

لم أسأل برتا إلا سؤالا واحدا بصوت منخفض: "هل كان الشيك لتسومبن؟" وأجابت بصوت منخفض كذلك: "طبعا." ونظرت إلى يدي برتا الصغيرين المائلين للسمرة اللتين تقود بهما السيارة في ثبات وهدوء، وقلت لنفسي: "يدان توقعان على الشيكات .. وتضغطان على أنابيب المايونيز." ثم اتجهت ببصري إلى أعلى، إلى فمها، ولم أشعر في تلك اللحظة أيضا برغبة في تقبيله.

لم أساعد برتا في ذلك المساء في إدخال السيارة إلى الكراج، كما لم أساعدها في غسل الأطباق. أخذت كأسا كبيرا من الكونياك وصعدت إلى حجرة مكتبي. جلست إلى مكتبي الذي كان ضخما للغاية بالنسبة لي، فكرت في شيء ما، ثم نهضت وذهبت إلى حجرة النوم ونظرت إلى تمثال العذراء الباروكي، ولكني لم أعد أتذكر هناك في أي شيء كنت أفكر.

قطع رنين التليفون تفكيري. رفعت السماعة ولم أدهش لسماع صوت تسومبن الذي قال:

- لقد أخطأت زوجتك سهوا، فهي لم ترفع سعر المتر ١٥ بل ٢٥ بفنكا.

فكرت لحظة ثم قلت:

- لم يكن هذا خطأ، لقد تم بموافقتي.

فلاذ بالصمت أولا، ثم قال ضاحكا: "أي أنكم ناقشتم كافة الإمكانيات الأخرى من قبل؟

- نعم.

- جميل، فلتوقع إذن على شيك آخر بـ ١٠٠٠ مارك.

- ٥٠٠ .

وقلت لنفسي: تماما كما يحدث في الروايات السيئة، إنه كذلك بالضبط.

أجابني: ٨٠٠ .

فقلت ضاحكا: ٦٠٠ .

كنت أعلم - بالرغم من انعدام خبرتي - أنه سيقول الآن ٧٥٠، وعندما قالها بالفعل وافقت، ووضعت السماعة.

لم يكن الليل قد انتصف بعد عندما هبطت الدرج محضرا الشيك لتسومبن في السيارة. كان بمفرده. ضحك عندما أسلمته الشيك المطوي. وحينما عدت إلى المنزل متمهلا لم يكن لبرتا أي أثر: لم تأت عندما رجعت إلى حجرة المكتب، ولم تأت عندما هبطت مرة أخرى لأحضر لنفسي كوبا من الحليب من الثلاجة. كنت أعرف فيما تفكر، إنها تقول لنفسها: لابد أن يتجاوز ذلك، يجب أن أدعه بمفرده، عليه أن يفهم ذلك.

ولكنني لم أفهم ذلك أبدا. لقد كان أيضا شيئا لا يمكن فهمه.

سيحدث شيء
قصة غزيرة الأحداث

من أغرب فترات حياتي هي لاشك تلك الفترة التي قضيتها موظفا في مصنع ألفريد فونزيدل. إنني بطبيعتي إنسان أميل إلى التأمل واللافعل أكثر من العمل، إلا أنه بين الحين والآخر تجبرني صعوبات مالية مستديمة - فالتأمل مثله مثل اللافعل لا يُدر شيئا - على قبول ما يسمى بالوظيفة. وبعد أن وصلت مرة أخرى إلى الحضيض، وضعت ثقتي في مكتب العمل الذي أرسلني مع سبعة من المنكوبين مثلي إلى مصنع فونزيدل، حيث كان ينبغي علينا أن نؤدي اختبار القبول.

بمجرد رؤيتي للمصنع ملأتني الريبة: كان المصنع كله مكسوا من الخارج بألواح الزجاج الشفاف، ونفوري من كل المباني والأماكن التي يغمرها الضوء يبلغ درجة نفوري من العمل. ملأتني الريبة أكثر عندما قُدم لنا على الفور إفطار في مطعم المصنع الساطع والمرسوم على جدرانه بألوان مبهجة. فتيات جميلات أحضرن لنا بيضا وقهوة وشرائح خبز. وعلى الموائد كانت هناك دوارق عصير برتقال شهي، وأسماك ذهبية تضغط بوجوهها المتعجرفة على جدار حوض الأسماك الزجاجي الأخضر الزاهي . كانت الفرحة تملأ فتيات المطعم وكأنهن على وشك الانفجار من

شدتها، الإرادة القوية وحدها - هكذا بدا لي - هي التي منعتهن من الدندنة المستمرة. كن يمتلئن بالأغاني المكتومة كدجاج يحتشد البيض بداخله. وخمنت على الفور ما بدا أن شركائي المنكوبين لم يخمنوه: إن هذا الإفطار أيضا جزء من الاختبار. وهكذا انهمكت في المضغ بوعي تام لإنسان يعلم كل العلم أنه يمد جسمه بمواد عالية القيمة. وفعلت شيئا لم تكن لتدفعني إليه في المعتاد قوة ما في هذا العالم: شربت على معدة خاوية عصير برتقال، لم أحفل بالقهوة والبيض، وتركت الجزء الأكبر من شرائح الخبز، ونهضت، وأخذت أذرع المطعم جيئة وذهابا وكلي تشوق للفعل كالحامل التي تنتظر ولادة طفلها .

وهكذا أدخلت كأول المتقدمين إلى حجرة الاختبار. كانت الأسئلة المطبوعة موضوعة على موائد جذابة الشكل في غرفه مدهونة جدرانها بدرجة من درجات اللون الأخضر تجعل كلمة " ساحر " تقفز على شفاه المهووسين بالأثاث الحديث. لم يكن هناك أحد، ومع ذلك كنت من التأكد في غاية أنني مراقب، لهذا سلكت كما يسلك الإنسان المتشوق للفعل حينما يعتقد أنه غير مُراقب: بنفاد صبر انتزعت قلمي الحبر من الشنطة، أدرت الغطاء العلوي حتى فتحته، جلست إلى أفضل مائدة بجواري، وخطفت ورقة الأسئلة كما يسحب الإنسان العصبي فاتورة المطعم.

السؤال الأول: الإنسان لا يملك إلا ذراعين وقدمين وعينين وأذنين - هل تعتبر ذلك صوابا؟

وهنا جنيت لأول مرة ثمار تأملاتي، فكتبت بلا تردد: "ولا أربعة أذرع وأقدام وآذان تستطيع أن تروي تعطشي للفعل. أعضاء الإنسان تعاني من نقص حاد."

السؤال الثاني: كم عدد التليفونات التي يمكنك الرد عليها في وقت واحد؟

وهنا أيضا كانت الإجابة في سهولة حل معادلة من الدرجة الأولى: " سيستولي عليّ القلق إذا كانوا سبعة فقط، ولن أشعر أن قواي قد استُنفذت تماما إلا عندما يصلون إلى تسعة."

السؤال الثالث: ماذا تفعل بعد الانتهاء من العمل؟

فأجبت: " أنا لم أعد أعرف كلمة (انتهاء العمل)، لقد شطبتها من مفرداتي اللغوية في عيد ميلادي الخامس عشر، ففي البدء كان الفعل."

وحصلت على الوظيفة. وبالفعل لم أشعر حتى مع تسعة تليفونات بنفاذ قواي. كنت أهتف في سماعة التليفون: "تصرف في الحال." أو: "افعل شيئا - لابد أن يحدث شيء - سيحدث شيء - لقد حدث شيء - كان من المفروض أن يحدث شيء." إلا أنني في الغالب، فهذا ما بدا لي مناسبا لجو العمل، كنت استعمل صيغة الأمر.

كانت فترات الراحة في الظهيرة شيقة حيث كنا نتناول أطعمة غنية بالفيتامينات في مطعم المصنع والفرحة الصامتة تحيط بنا من كل جانب. كان مصنع فونزيدل يحفل بأناس مهووسين بسرد تاريخ حياتهم، مثلما تحب القيام بذلك الشخصيات غزيرة الأفعال. تاريخ حياتهم هو أهم عندهم من الحياة نفسها. لا يحتاج المرء إلا أن يضغط على زر، وسوف يتقيأون سيرتهم على الفور بكل فخر .

كان نائب فونزيدل رجلا اسمه بروشيك، تمتع هو الآخر بقدر من الشهرة مرجعه أنه وهو طالب كان يعول من خلال العمل الليلي سبعة أطفال وامرأة مشلولة، وفي الوقت نفسه كان ممثلا تجاريا ناجحا لأربع

شركات، وفوق ذلك كله فقد اجتاز خلال عامين امتحانين في الجامعة بدرجة امتياز. عندما سأله الصحفيون: " ومتى تنام إذن يا سيد بروشيك؟ " أجاب بقوله: "النوم خطيئة." أما سكرتيرة فونزيدل فكانت تعول من خلال شغل الإبرة رجلا مشلولا وأربعة أطفال، وفي الوقت ذاته حصلت على درجتي دكتوراه في علم النفس والجغرافيا الإقليمية. كانت تربي أيضا كلاب الحراسة، كما أصابت شهرة كمغنية في بار تحت اسم "المرأة اللعوب رقم ٧".

و فونزيدل نفسه كان واحداً من هؤلاء الذين ما يكادون يستيقظون صباحا حتى يعقدوا النية على الفعل. "لابد أن أفعل شيئا"، يقولونها لأنفسهم وهم يربطون بنشاط حزام روب الحمام. "لابد أن أفعل شيئا"، يفكرون وهم يحلقون ذقنهم، ثم ينظرون بانتصار إلى شعيرات الذقن التي يزيلونها بالماء مع رغاوى الصابون من ماكينات الحلاقة: بقايا الشعر هذه كانت أولى ضحايا تعطشهم للفعل. والأنشطة الأخرى الأكثر خصوصية كانت تولّد عند هؤلاء الناس نوعا من الارتياح: الماء ينساب، ورق التواليت يُستهلك. لقد حدث شيء. الخبز يُؤكل، والبيضة تُقشر.

حتى الأشياء عديمة الأهمية تبدو عند فونزيدل وكأنها أحداث: الطريقة التي يضع بها القبعة على رأسه، الطريقة التي - وهو يهتز من النشاط اهتزازا - يزرر بها المعطف، القبلة التي يطبعها على فم زوجته؛ كل شيء فعل.

عندما يدخل مكتبه يبادل سكرتيرته التحية قائلا: "لابد أن يحدث شيء!" وترد هي الأخرى والفرح يطل من عينيها: "سيحدث شيء!" عندئذ يتنقل من قسم إلى آخر ملقيا جملته في مرح: "لابد أن يحدث

شيء!"، ويرد الجميع: "سيحدث شيء!" وأنا أيضا كنت أقول له متهلل الوجه عندما يمر على حجرتي: "سيحدث شيء!"

في خلال الأسبوع الأول ارتفعت بعدد التليفونات التي أرد عليها إلى أحد عشر، في خلال الأسبوع التالي إلى ثلاثة عشر. وكان مما يبهج نفسي أن أخترع صباحا في الترام صيغ أمر جديدة، أو أن أتعقب فعل "يحدث" في جميع الأزمنة، ومع مختلف الضمائر، وفي كل الصيغ النحوية. لمدة يومين لم أكن أنطق إلا بجملة واحدة، لأنني وجدتها في غاية الجمال: "كان لابد أن يحدث شيء". ثم لمدة يومين آخرين جملة ثانية: "لم يكن ينبغي أن يحدث ذلك".

إلا أنني بدأت أشعر حقيقةً أن قواي قد استُنفذت عندما حدث بالفعل شيء. ما كدت أستقر على مقعدي في صباح أحد أيام الثلاثاء حتى انقض عليّ فونزيدل في حجرتي، وتلا جملته: "لابد أن يحدث شيء!". لكن شيئا ما على وجهه لا أستطيع تفسيره جعلني أتردد في الرد عليه بسرور وغبطة كما تقتضي اللوائح: "سيحدث شيء!". من المؤكد أن ترددي طال أكثر من اللازم إذ أن فونزيدل - الذي نادرا ما يرفع صوته - زأر في وجهي: "أجب، أجب كما تنص اللوائح!" فأجبت بصوت خافت ومضطرا كطفل يجبروه على أن يقول: أنا طفل شرير. لم ألفظ بالجملة إلا بجهد جهيد: "سيحدث شيء!"، وما كدت أنطقها حتى حدث بالفعل شيء: تهاوى فونزيدل على الأرض وتدحرج أثناء وقوعه إلى أن استقر راقدا على جنبه بعرض الباب المفتوح . أدركت على الفور ما حدث، وهو ما تأكدت منه عندما درت حول مكتبي مقتربا من المطروح على الأرض: لقد مات .

تخطيت فونزيدل وأنا أهز رأسي، ومشيت ببطء خلال الممر حتى حجرة بروشيك ودخلت دون أن أطرق الباب. كان بروشيك جالسا إلى مكتبه، يمسك في كل من يديه سماعة تليفون، في فمه قلم جاف يدون به ملاحظات على دفتر صغير، بينما كان يعمل بقدميه الحافيتين على ماكينة تريكو موضوعة تحت مكتبه. بهذه الطريقة يساهم في استكمال الناقص من ملابس عائلته. همست قائلا: "لقد حدث شيء!". بصق بروشيك القلم من فمه، ووضع سماعتي التليفون، وبتردد خلص أصابع قدميه من ماكينة التريكو، وسألني: " وماذا حدث؟ ".

فقلت: مات السيد فونزيدل .

فقال بروشيك: لا .

- بلى. تعال معي.

- كلا. هذا غير معقول.

ومع ذلك دس قدميه في شبشبه وتبعني عبر الممر. وعندما وقفنا بالقرب من جثة فونزيدل قال: " كلا، كلا، كلا!". لم أعارضه، وأدرت فونزيدل بحرص حتى رقد على ظهره، وأغلقت عينيه، ونظرت إليه متأملا . رق قلبي له، واتضح لي لأول مرة إنني لم أكرهه أبداً. بدا وجهه كوجوه الأطفال الذي يرفضون بعناد أن يتخلوا عن إيمانهم بالوجود الفعلي لرجل عيد الميلاد، بالرغم أن كل الحجج التي يسوقها زملاؤهم تبدو مُفحمة.

وهتف بروشيك: كلا .كلا.

فقلت له بصوت خافت: لابد أن يحدث شيء!

فجاوبني قائلا: نعم . لابد أن يحدث شيء!

وحدث شيء: دُفن فونزيدل، وانتُدبت أنا لكي أحمل إكليلاً من الورد الاصطناعي خلف نعشه؛ إذ أن الطبيعة لم تمنحني نزعة إلى التأمل و اللافعل فحسب، بل أيضا هيئة ووجها كأنهما خُلقا للبدل السوداء. لابد أن منظري كان رائعا وأنا أسير وفي يدي إكليل من الزهور الاصطناعية خلف نعش فونزيدل فقد تلقيت عرضا من أحد مكاتب الدفن الأنيقة لكي أمتهن السير وراء الجنازات. "لقد ولدت لتسير وراء الجنازات"، قال لي مدير مكتب الدفن. "سنعطيك ملابسك خاصة من عندنا. وجهك، باختصار، رائع!"

قدمت استقالتي لبروشيك متعللاً بأنني لا أشعر في المصنع أن طاقتي قد استُغلت تماما، وأن جزءاً من إمكانياتي مازال مُعطلا بالرغم من التليفونات الثلاثة عشر. بعد أول جنازة سرت وراءها بصفة مهنية شعرت على الفور أن ها هنا مكاني، وأن هذا هو العمل المناسب لي.

متأملاً أقف خلف النعش في الكنيسة الصغيرة بالجبانة، وفي يدي باقة زهر بسيطة أثناء عزف مقطوعة "لارغو" لهاندل، وهي مقطوعة موسيقية لم تنل حقها من الاهتمام. أتردد بانتظام على قهوة الجبانة، حيث أقضي أوقات فراغي بين الجنازات التي أكلف بالسير وراءها، إلا أنني أحيانا أسير أيضا خلف نعوش دون أن أتقاضى شيئا. أشتري من جيبي باقة زهر، وأنضم إلى موظف مكتب الرعاية الاجتماعية الذي يسير وراء نعش أحد المتشردين. بين الحين والآخر أزور قبر فونزيدل أيضا، فإليه يرجع الفضل أولاً وأخيراً أنني اكتشفت مهنتي الحقيقية؛ مهنة المطلوب مني فيها هو التأمل، و اللافعل هو واجبي. لم يخطر على بالي إلا متأخرا أنني لم اهتم أبداً بما كان يُنتج في مصنع فونزيدل. لابد أنه كان صابونا.

من نوادر هبوط أخلاقيات العمل

في أحد الموانئ الواقعة على الشاطئ الغربي لأوربا استلقى رجل رث الثياب في قارب صيد يملكه وغفا. كان سائح أنيق الملبس قد فرغ لتوه من وضع فيلم ملون جديد ليلتقط صورة لهذا المنظر الخلاب: سماء زرقاء، بحر كساه اللون الأخضر تتابعت أمواجه في وداعة يعلوها زبد ناصع البياض، قارب أسود، و بيريه الصياد الأحمر. "كليك". ثم صورة أخرى: "كليك". ولأن الثالثة ثابتة، والاحتياط واجب، فلقد التقط الصورة الثالثة: "كليك". هبط الصوت الخشن كالقضاء المستعجل على الصياد النعسان فأيقظه. اعتدل الصياد والنوم ملء جفنيه، وأخذت يده - والنوم ملء جفنيه - تتصيد علبة سجائره، ولكن قبل أن تصل إليها يده كان السائح المتحمس قد مد علبة حتى أصبحت قرب أنفه، ولم يضع له السيجارة بين شفتيه، بل وضعها في كفه، ثم "كليك" للمرة الرابعة؛ تلك المرة كان صوت الولاعة هو الذي أنهى هذا التهذب الأهوج. وبسبب هذه الحركات السريعة، التي تنم عن مبالغة في التهذب حيال الصياد، وهى مبالغة ليس لها أدني تعليل أو سبب، تولدت حيرة مشوبة بالتوتر، حاول السائح المتمكن من لغة البلد أن يتغلب عليها بالتحدث مع الصياد:

- سيكون صيدك اليوم وفيرا.

هزة رأس نافية من الصياد.

- لكنني سمعت أن الطقس ملائم؟

إيماءة موافَقة من الصياد.

- فأنت إذن لن تخرج للصيد؟

الصياد يهز رأسه بالنفي، والسائح تزداد عصبيته.

لاشك أن مصلحة هذا الإنسان الرث الثياب قد شغلت باله، ولذلك أحزنه أن يُضيّع فرصة الصيد هذه.

- آه، لابد أنك مريض؟

أخيرا انتقل الصياد من لغة الإشارة إلى لغة الكلام:

- أنا في خير حال. لم أشعر بأنني أحسن من ذلك أبدا.

ونهض وتمطى، كأنه أراد أن يستعرض جسمه الرياضي.

- إنني في أسعد حال.

تعبيرات وجه السائح تزداد تعاسة. لم يعد يستطيع أن يكتم السؤال الذي كاد يعتصر قلبه:

- ولماذا لم تخرج للصيد إذن؟

وجاءت الإجابة سريعة مختصرة:

- لأنني خرجت صباح اليوم.

- وهل كان الصيد وفيرا؟

- كان وفيرا لدرجة أنني لا أحتاج إلى الخروج للصيد مرة أخرى. اصطدت أربعة سرطانات كبيرة، و حوالي دستتين من أسماك الماكريل.

وتدفق الصياد - الذي أفاق أخيرا - في الحديث، وربت على

كتفي السائح مهدئا. بدا للصياد أن ملامح وجه السائح القلقة تُعبر عن هموم لا أساس لها، إلا أنها أثرت فيه، فقال ليخفف عن هذا الأجنبي:

- أنا حتى عندي ما يكفيني غدا وبعد غد. هل تدخن من سجائري؟

- نعم، شكرا.

السجائر في الأفواه. " كليك" لخامس مرة. جلس الأجنبي على حافة القارب هازا رأسه مستنكرا. ترك آلة التصوير من يده، فهو بحاجة الآن إلى كلتا يديه ليدعم حديثه بإشارات منها، قال:

- أنا لا أريد التدخل في شئونك الخاصة، ولكن، تخيل معي أنك خرجت للصيد مرة أخرى اليوم، ومرة ثالثة، أو حتى رابعة. ستصطاد ثلاث، أربع، خمس، أو حتى عشر دستات من أسماك الماكريل .. تخيل هذا.

الصياد يومئ موافقا، والسائح يكمل كلامه:

- وستفعل هذا ليس اليوم فحسب، وإنما غدا، وبعد غد .. أي في كل يوم مناسب ستخرج للصيد مرتين، ثلاث، أو حتى أربع مرات .. هل تعرف ماذا سيحدث؟

الصياد يهز رأسه نافيا.

- في خلال عام على الأكثر ستستطيع أن تشتري محركا، وخلال عامين قاربا آخر، وبعد ثلاثة أو أربعة أعوام قد يمكنك أن تمتلك زورق صيد صغير، وباستخدام القاربين أو الزورق ستصطاد بالطبع أكثر من الآن بكثير. وفي يوم ما ستمتلك زورقين، وسوف ...

وعقد الحماس لسانه لبضع لحظات.

- سوف تبني ثلاجة أسماك صغيرة، وقد يمكنك أن تنشئ مصنعا لتدخين الأسماك، ثم آخر لتمليحها وتعليبها، وتطير بهليكوبتر خاصة بك، وتحدد أماكن تجمع الأسماك، وتعطي زوارقك التعليمات باللاسلكي، وتستطيع أن تمتلك امتياز صيد السالمون، وتفتح مطعما للأسماك، وتصدر سرطان البحر مباشرة ودون وسطاء إلى باريس، ثم ..

وعقد الحماس لسان الأجنبي مرة أخرى. هازا رأسه في استنكار تطلع السائح إلى الموجة المتهادية في سلام، والتي تمرح تحتها أسماك لم يصطدها أحد بعد، وقد امتلأ قلبه حزنا بسبب إجازته التي كاد الاستمتاع بها أن يضيع، وقال:

- ثم ..

ولكن لسانه انعقد مرة أخرى من فرط الإثارة التي تملكته. خبط الصياد على ظهره كطفل وقفت لقمة في حلقه، ثم سأله بصوت خافت:

- ثم ماذا ؟

فأجاب الأجنبي بحماس هادئ:

- ثم .. ثم، عندئذ تستطيع الجلوس باطمئنان هنا في الميناء، وتغفو تحت أشعة الشمس، وتتأمل في البحر الرائع.

فأجابه الصياد :

- ولكن هذا ما أفعله الآن. كنت أجلس مطمئنا في الميناء وأغفو، ولم يزعجني إلا صوت آلة تصويرك.

وانصرف ذلك السائح المتعالم من عند الصياد وهو غارق في تفكير عميق، فقد اعتقد هو أيضا ذات يوم أنه يعمل ليجيئ اليوم الذي لا يجب عليه أن يعمل بعده ... ولم يبق في قلبه أي أثر من الإشفاق على هذا الصياد رث الثياب، وإنما بعض الحسد.

العناوين الأصلية للقصص وتاريخ نشرها لأول مرة:

1. Der Tod der Elsa Baskoleit (1953)
2. An der Bruecke (1949)
3. Abschied (1950)
4. Wanderer, kommst du nach Spa.. (1950)
5. Mein teures Bein (1948)
6. Steh auf, steh doch auf (1950)
7. Geschaeft ist Geschaeft (1950)
8. Mein Onkel Fred (1951)
9. Die Postkarte (1953)
10. Die Waage der Baleks (1952)
11. So ward Abend und Morgen (1954)
12. Der Lacher (1952)
13. Hier ist Tibten (1953)
14. Wie in schlechten Romanen (1956)
15. Es wird etwas geschehen (1956)
16. Anekdote zur Senkung der Arbeitsmoral (1963)

الهوامش

١- Christian Linder: Heinrich Boell. Koeln: 1986, S. 366

٢- Wolfgang Ule (Hg.): Deutsche Autoren in arabischer Sprache. Eine Bibliographie. Kairo 1975.

٣- راجع : "خريف الغضب" لمحمد حسنين هيكل ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٤٨ .

٤- انظر مثلا : M. Reich-Ranicki: Deutsche Literatur im West und Ost, München 1985, S. 139

٥- مثل هذا التحول - من الفن القصصي إلى المقالة الأكثر قدرة على التأثير المباشر الآني - نلاحظه عند عديد من الكتاب العرب ، منهم على سبيل المثال القصاص المصري يوسف إدريس (١٩٢٧ - ١٩٩١) الذي تفرغ في سنوات الثمانينات تماما للمقالة الصحفية .

٦- عندما حصل هرمان هسه ونيللي زاكس وإلياس كانيتي على جائزة نوبل كانوا قد فقدوا الجنسية الألمانية .

٧- بالإضافة إلى المراجع السابق ذكرها يعتمد هذا العرض عن هاينريش بُل على :

Dietz-Rüdiger Moser (Hg.): Neues Handbuch der deutschsprachigen Gegenwartsliteratur seit 1945. München 1993.

٨- المديا Medea هي ابنة أحد الملوك في أسطورة إغريقية . هجرها زوجها فقتلت عشيقته وأطفالها . (المترجم)

٩ - هرميس - في الميثولوجيا الإغريقية - رسول الآلهة ، وإله التجارة ، ورفيق الموتى في العالم السفلي . في العصر البطلمي بمصر شبهوه بالإله المصري القديم أنوبيس ، رب التحنيط والعالم السفلي . (المترجم)

١٠- النص الكامل للقول : "أيها الجوّال ، إذا وصلت أسبرطة/ فخبرهم هناك ، أنك/ رأيتنا صرعى/ كما يأمر القانون ." . وهو ترجمة لنقش يوناني كُتب تذكارا لضحايا أهل أسبرطة الذين لاقوا مصرعهم عام ٤٨٠ قبل الميلاد . (المترجم)

١١- الجنرال باول فون هندنبورغ (١٨٤٧ - ١٩٣٤) ، سليل عائلة ضباط من بروسيا ، شارك في الحروب الألمانية الفرنسية (١٨٧٠ - ١٨٧١) وأنهى خدمته في الجيش عام ١٩١١ لكنه استدعي مرة أخرى ليشارك في الحرب العالمية الأولى . بعد انتهاء الحرب اتخذ مواقف يمينية فاشية ، لذلك يعتبر ممن مهدوا الطريق لهتلر كي يستولي على الحكم عام ١٩٣٣ . (المترجم)

١٢- كلمة الرايخ تعني أصلا المملكة ، وهي تشير هنا إلى ألمانيا بعد تولي هتلر الحكم فيها (١٩٣٣) وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) ، حيث كان يُطلق عليها "الرايخ الثالث" . (المترجم)

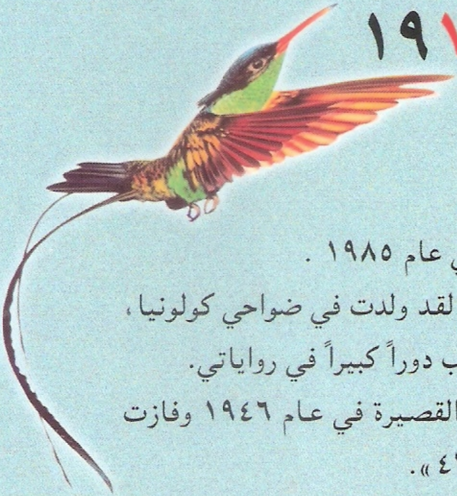
١٣ - المقصود بذلك هو تقديم اليهود السيد المسيح للمحاكمة ، ثم إدانته وصلبه . ويسوع المسيح - في العقيدة المسيحية - هو ابن الله المتجسد . (المترجم)

١٤- المقصود بذلك هو تكسير أوان خزفية أمام باب العروسين في الليلة السابقة للعرس ، وهي عادة ألمانية قديمة مبعثها الاعتقاد بأن القطع المهشمة تجلب السعادة للعروسين وتطرد الأرواح الشريرة عن البيت . (المترجم)

١٥- نص الآيات هو : " في البدء خلق الله السموات والأرض . وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه . وقال الله ليكن نور فكان نور . ورأى الله النور أنه حسن . وفصل الله بين النور والظلمة . ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا . وكان مساء وكان صباح يوما واحدا . " وهي أولى الآيات في سفر التكوين ، أول أسفار التوراة . (المترجم)

هاينريش بُل

نوبل ١٩٧٢



- ولد عام ١٩١٧ وتوفي عام ١٩٨٥ .
- يقول بول عن نفسه: «لقد ولدت في ضواحي كولونيا، واعتقد أن الضواحي تلعب دوراً كبيراً في رواياتي.
- نشر بول أول قصصه القصيرة في عام ١٩٤٦ وفازت إحداها بجائزة «جماعة ٤٧».
- جرب بول العديد من الأشكال والأنواع الأدبية، ولكن معظم النقاد متفقون على أنه حقق أفضل أعماله في القصة القصيرة.
- من رواياته المنشورة «لم يقل كلمة واحدة» عام ١٩٥٣، و«بيت بلا حراس» عام ١٩٥٤، و«خبز الأعوام السابقة» عام ١٩٥٥.
- يُبرّز الكاتب في أعماله سخف الحرب بكل صورها وأشكالها، ومحنة الأخلاق التي دفعت البعض إلى خلق الفاشية، تشهد بهذا كل أعماله.
- ومن أعماله الأخرى «صمت الدكتور موركس» و«بلياردو في التاسعة والنصف» وكلاهما من الأدب الساخر.

ISBN:2-84305-738-X
9 782843 057380